ذكر رسالة عمر بن الخطاب ﷺ إلى النيل

قال ابن عبد الحكم 1: حدثنا عثمان بن صالح، عن ابن[1] لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عمن حدثه، قال: لما فتح عمرو بن العاص مصر أتى أهلها إليه حين بؤنة من أشهر العجم، فقالوا له:أيها الأمير، إن لنيلها هذا سنة لا يجرى إلا بها، فقال لهم: وما ذاك ؟ قالوا: إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله، [فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يزيد كثيرا ولا قليلا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله][2]، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى. فلما قدم الكتاب على عمرو وفتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد: فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الواحد القهار يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها؛ لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا، وقطع تلك السنة السوء عن أهل مصر.

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل. وفى ب، جـ: أبى. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من فتوح مصر. وهو عبد الله بن لهيعة، أبو عبد الرحمن المصرى. انظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٣).

(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى جـ.

---

1 فتوح مصر، ص ٢٦٤.

قال المقريزى فى (الخطط) 1: وذكر بعضهم أن جاحل الصدفى هو الذى قرأ بطاقة عمر ﷺ على النيل.

قلت: وجاحل صحابى يكنى أبا مسلم، ذكره محمد بن الربيع الجيزى فى تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر، وقال: لا يعرف له حضور الفتح ولا خطة بمصر ولا للمصريين عنه حديث، ولم يرو عنه غير أهل مصر. وذكره أيضا ابن يونس وابن زيد وابن منده فى الصحابة.

*** قصة أخرى:**

زاد النيل ستة عشر ذراعا فى ليلة، وذلك بدعاء موسى عليه السلام. قال ابن عبد الحكم2: حدثنا معمر بن صالح، حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب: أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء، حتى طلبوا إلى موسى أن (١) يدعو الله، فدعا الله رجاء أن يؤمنوا، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا، فاستجاب الله بتطوله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام.

*** قصة أقام الله تعالى فيها الحجة على فرعون اللعين:**

قال البيهقى فى شعب الإيمان 3: أخبرنا أبو على الحسين بن محمد الروذبارى، أنبأنا الحسين بن حسن (٢) بن أيوب الطوسى، أنبأنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد ابن إبراهيم بن العلاء الواسطى بمكة، حدثنا أيوب بن سويد الرملى، عن عمرو بن الحارث، عن يزيد بن أبى حبيب ح. وقال الحكيم الترمذى فى (نوادر الأصول)4:

---

(١) فى الأصل، ب: أنه. وما أثبتناه موافق لما فى فتوح مصر لابن عبد الحكم.

(٢) فى ب، جـ: الحسين.

---

1 (١/ ٥٨).

2 فتوح مصر، ص ٢٦٥.

3 شعب الإيمان (٤/ ١٣٣).

4 لم نجده فى النسخة التى بين أيدينا من نوادر الأصول فى أحاديث الرسول.

حدثنا عمر بن أبى عمر، حدثنا أبو عمير النحاس، عن أيوب بن سويد، عن عمرو ابن الحارث، عن يزيد بن [1] أبى حبيب المصرى، عن أبى الخير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: غار الماء [2] على عهد فرعون، فأتاه أهل مملكته فقالوا: أيها الملك أجر لنا النيل. فقال: إنى لم أرض عنكم. فذهبوا ثم أتوه فقالوا: أيها الملك أجر لنا النيل. قال: إنى لم أرض عنكم. فذهبوا ثم أتوه فقالوا: أيها الملك ماتت البهائم وهلكت الأبكار، لئن لم تجر لنا النيل لنتخذن إلها غيرك. قال: اخرجوا إلى الصعيد. فخرجوا، فتنحى عنهم حيث لا يرونه ولا يسمعون كلامه، فألصق خده بالأرض وأشار بالسبابة، وقال: اللهم إنى خرجت إليك مخرج العبد الذليل إلى سيده، وإنى أعلم أنك تعلم أنى أعلم أنه لا يقدر على إجرائه أحد غيرك فأجره. قال: فجرى النيل جريا لم يجر قبله مثله، فأتاهم فقال: إنى قد أجريت لكم النيل، فخروا له سجدا، وعرض له جبريل ﷺ، فقال له: أيها الملك أعدنى 1 على عبدى. قال: وما قصته ؟ قال: عبد لى ملكته على عبيدى وخولته مفاتيحى فعادانى، فأحب من عاديت، وعادى من أحببت. قال: بئس العبد عبدك، لو كان لى عليه سبيل لغرقته فى بحر القلزم. قال له: أيها الملك، اكتب لى كتابا، فدعا بكتاب ودواة فكتب: ما جزاء العبد الذى خالف سيده، فأحب من عادى، وعادى من أحب، إلا أن يغرق فى بحر القلزم. قال: أيها الملك، اختمه لى. فختمه، ثم دفعه إليه. فلما كان يوم البحر أتاه جبريل بالكتاب، فقال: خذ، هذا ما حكمت به على نفسك.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: لما أخذ الله آل فرعون بالسنين يبس كل شجر لهم، وذهبت مواشيهم، حتى يبس نيل مصر، واجتمعوا إلى فرعون، وقالوا له: إن كنت كما تزعم فأتنا فى نيل مصر بماء. قال:

---

(١) فى الأصل: عن. وهو خطأ.

(٢) فى ب، جـ: النيل.

---

1 أعدنى: من العدوى، وهى طلبك إلى وال ليعديك على من ظلمك، أى: ينتقم منه.

غدوة يصبحكم الماء. فلما خرجوا من عنده قال: أى شىء صنعت ؟ أنا أقدر على أن أجرى فى نيل مصر ماء ؟! غدوة أصبح فيكذبونى. فلما كان فى الليل قام واغتسل ولبس مدرعة صوف، ثم خرج حافيا حتى أتى نيل مصر فقام فى بطنه، فقال: اللهم إنك تعلم أنى أعلم أنك تقدر على أن تملأ نيل مصر، فاملأه ماء. فما علم إلا بخرير الماء يقبل، فخرج بمصر [1]، وأقبل النيل يرخ بالماء لما أراد الله بهم من الهلكة.

(ح وقال الحكيم الترمذى: حدثنا عمر، حدثنا محمد بن عمران بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى به) [2].

ومن التوجيه بوفاء النيل قول البدر بن الصاحب:

رنا بجفن كسره صحة فحيل [3] للوصل دون الجفا

فقلت إذ فاضت دموعى هوى من جفنه الكسر وجفنى الوفا

وقال أيضا:

نيل الدموع قد علا وقد وفا وخلقا

فخاف من عينى الكرا إن زارها أن يغرقا

وقال ابن نباتة:

ونفسى ذنبها كالنيل مدا (وقالوا عود تربتها)[4] وفاء

مسوفة متى وعدت بخير تقل سين وواو ثم فاء

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٣) فى الأصل: محيل.

(٤) فى الأصل، جـ: وبالرعد توبتها. والمثبت من ب. وبه يصح وزن البيت.

obeikandl.com

وقال أيضا رحمه الله تعالى:

قسما حلت عن عهد الوفا بعد مصر لا ولا نيل بكائى
حبها (تحتى وفوقى) [1] ويمينى وشمالى وأمامى ووراءى
فهى ستى من جهاتى ونيلها [2] سيدى من حيث رقى وولائى

وقال أيضا:

بكرت على منوال أدمع نائح كالنيل ذات وفاء وذات منادى

وقال أيضا:

لى فى القصائد تشبيب بها ولها على جريح الحشا باللحظ تذفيف[3]
كما حكى نيل مصر جود شايدها لو لم يكن فى وفاء النيل تسويف

وقال الشهاب محمود يمدح الصاحب شمس الدين بن السلعوس:

وكم رام يحكى النيل نيل بنانه فأغنى ولكن فرد قطر عن القطر [4]
وذاك يعم الأرض شرقا ومغربا سواء لديه ساكن القفر والمصر
وحين رأى تقصيره عن وفائه تجنبه واحمر من خجل يجرى

وقال ابن أبى حجلة:

إذا قلت ما بى يا بثينة قاتلى يقول [5] وقتل المستهام أريد
وإن قيل زاد النيل بعد الوفا أقل صدقتم ودمعى ثابت ويزيد

---

(١) فى ب، جـ: فوقى وتحتى.
(٢) فى الأصل: ولديها.
(٣) فى ب، جـ: تدفيف، بالدال المهملة. ومعناها بالذال المعجمة: الإجهاز والتتميم.
(٤) فى ب: الفطر.
(٥) فى جـ: ويقول.

وقال الصفى الحلى:

وبشرت بوفاء النيل ساجعة كأنها فى غدير الصبح قد صدحت[1]

مخضوبة الكف ما تنفك نائحة كأن أفراخها [2] **فى كفها ذبحت**

(١) فى ب: سجت.

(٢) فى الأصل: إخراجها. وفى ب: أفراجها.

obeikandl.com

ذكر كتابة البشارات إلى الأعمال بوفاء النيل

قال المقريزى 1: كانت العادة عندهم إذا حصل وفاء النيل أن يكتب إلى الأعمال بذلك، فمما كتب من إنشاء تاج الرياسة أبى القاسم على بن منجب بن سليمان الصيرفى: أما بعد: فإن أحق ما وجبت به التهنئة والبشرى، وغدت المسار مبشرة (تتوالى تترى) [1]، وكان من اللطائف التى غمرت بالمنة العظمى، والنعمة الجسيمة الكبرى، ما استدعى الشكر لموجد العالم وخالقه، وظلت النعمة به عامة لصامت الحيوان وناطقه، وتلك الموهبة بوفاء النيل المبارك الذى يسره الله تعالى - وله الحمد - يوم كذا، فإن هذه العطية تؤدى إلى خصب البلاد وعمارتها، وشمول المصالح وغزارتها، وتقضى بتضاعف المنافع والخيرات، وتكاثر الأرزاق والأقوات، ويتساهم الفائدة فيها جميع العباد، وتنتهى البركة بها إلى كل دار وناد، وكل حاضر وباد، فأذع هذه النعمة قبلك، وانشرها فى كل من يتدبر عملك، وحثهم على مواصلة الشكر لهذه الألطاف الشاملة لهم ولك، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

وكتب أيضا:

أولى ما تضاعف الابتهاج به والجذل، وانفتح [2] فيه الرجاء واتسع الأمل، ما عم

(١) فى الأصل: متوالى تترى.
(٢) فى الأصل: وأنفح.

1 الخطط (١/ ٤٧٩).

نفعه صامت الحيوان وناطقه، وأحدث لكل أحد اغتباطا لزمه إلى أن يفارقه، وذلك ما من الله به من وفاء النيل المبارك الذى تحيا به كل أرض موات، وتكتسى بعد اقشعرارها حلة النبات، ويكون سببا لتوافر الأقوات، فإنه وفى المقدار الذى يحتاج إليه. فلتذع هذه [1] المنة فى القاصى والدانى، لتستعمل الكافة بينهم ضروب البشائر والتهانى، إن شاء الله تعالى.

وكتب أيضا:

من لطف الله تعالى الواجب حمده، اللازم شكره، وفضله الذى لا يمل نشره، ولا يسأم ذكره، ومنه الذى استبشر به الأنام، وتضاعفت فيه الأنعام، ومثل الله [2] الحياة به فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ**﴾ 1 - أمر النيل المبارك الذى يعم المنجد والمتاهم 2، وتنتفع به الخلائق، وترتفع فيما يظهره البهائم، وقد توجه إليك بالكتاب بهذا التبشير فلان، فأجره على رسمه فى إظهاره مجملا، وإيصاله إلى رسمه مكملا، وإذاعة هذه النعمة على الكافة ليتساهموا الاغتباط بها، ويبالغوا فى الشكر لله سبحانه بمقتضاها، وعلى حسب ذلك فاعلم ذلك واعمل به إن شاء الله تعالى. انتهى.

***كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء القاضى الفاضل:

أسمعه الله من خصب البلاد وأمنها، وتوالى نعم الله ومنها، ما يستفز الألباب طربا، ويبلغ من المسار إربا، ويوضح إلى مبهجات النفوس طريقا مقتربا، ولا برحت ثغور التهانى له بالبشر مفترة، والآمال بسعادته واثقة، وطالما كانت بغيره

---

(١) فى الأصل: مدة.

(٢) لفظ الجلالة أثبتناه من الخطط (١/ ٤٧٩) ليتضح المعنى.

---

1 سورة يونس، الآية ٢٤.

2 المنجد: الآتى نجدا. والمتاهم: الآتى تهامة.

مغترة، وأخبار نعمه تقص عليه حين ينزل الله من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، المملوك يقبل الأرض التى نفعها يضاهى نفع السحاب إذا جاد، ويفجر على فيض البحر إذا زاد، وينهى إلى علمه ما من الله تعالى - وله الحمد والمنة - على عباده من ألطافه الخفية الخفية، وبركاته التى لم تزل لكل وعد وفية، وذلك بوفاء النيل المبارك الذى خصه الله تعالى بشمول الرحمة وعمومها، وسبوغ النعمة التى تسر الأنفس بقدومها، إذ هو عندما يحل البلاد يحليها، ويجللها بالرى فيجلب لها السعادة ويجليها، ويصبح حيث سار وثغر الروض مبتسم، وأين كان فالأيدى لأياديه بأصابعها تنقسم، ومتى قدم حصلت به مسرة القادم، وإذا ما افتخر على ما سواه أقر له كل بالرق، فلو كاتبه البحر المحيط لكتب إليه بالعبد الخادم، طالما بلغت به الآمال كل سول، وانتظرته البلاد انتظار المحب رجع الرسول، ومر على الأرض فحلت محاسنه كل عاطل، وفتح الغمام نواله فلهذا ضحك البرق المبتسم لبكاء السحاب الهاطل، ولم يبعثه الله تعالى من البلاد البعيدة إلا لطرد المحل وإبعاده، ولما تشبه به الغيث الركام ولم يقدر على (مجاراته فلح فى إبراقه وإبعاده، فقد أضحى موردا للخلائق بوروده معنا، وقالت) [1] ألسنة (الوجود لقدومه) [2]:

ظمئنا منذ غبت فما روينا ثناء عن سواك ولا روينا

وهو الذى يعم خيره وتشمل بركته ولا يقدر على ذلك غيره، ولما كان يوم كذا وكذا جرى على عادته فى الوفا، وصافى العباد بعوده إلى البلاد وإن لم يكن موصوفا بالصفا، فوفى الستة عشر ذراعا، وأوجب الشكر من العالمين فأضحت الألسنة منهم إليه سراعا، ووافى البلاد عندما دعت إليه ضرورتها واحتياجها، واقترن قدومه بالخصب والأمن وإنما يزين الليالى انتظامها وازدواجها، واستولى [3] على الأرض فثبت فيها قدمه، وامتد كالسيف الصقيل فقتل المحل وهذا الاحمرار فيه إنما هو دمه،

---

(١) ما بين القوسين ليس بالأصل.

(٢) فى الأصل: الموجود لمقدومه.

(٣) فى ب: واستد. وفى جـ: وامتد.

فعند ذلك أمر القياس بتخليقه، ورفع الحجر عمن وفى عليه فكتبت تلك الأصابع له وصولا بتغليقه، ثم حصل العود إلى مكان السد وقد أسبغ الله تعالى منة منه وطولا، وأطلق ألسنتهم بالشكر وإن من كان من ورائه [1] قوم لا يكادون يفقهون قولا، فاجتمع على كسره من هنالك من الجموع، وحاكى كسره الذى هو جبر على الحقيقة كسر قلب يتلوه فيض الدموع، وسطرت والنيل المبارك لم يترك وعدا إلا وفاه، ولا وهدا 1 إلا أخفاه، ولا فريقا إلا وشمل بإحسانه المعروف منه ذلك الفريق، ولا طريقا إلا قطعها [2] بما وصلت به الأرزاق، وما هكذا عادة من يقطع الطريق، ولا أملا إلا وبلغه كل منية منه حسنى ومنة، ولا ناديا إلا وتلاه بما يشتمل الأنفس وتلذ الأعين، ولا عجب فإنه من الجنة، والأمل من الله تعالى أن يبلغ به المنافع، ويعم بخيره المرابط من الأرض والمرافع، ولا ينثنى عن تلك البلاد إلا وقد ملأ اليمين من اليمن واليسار من اليسر، ولا يودع إلا والجود يحل حيث حل ويسير حيث سار، ولما شملت هذه الرحمة، وكملت هذه النعمة، أحب المملوك أن يكون للمولى من هذه البشرى أوفر نصيب، وأن يقص عليه من أنباء مصر وخصبها ما يذهله عما يؤثر عن مصر قديما والخصيب، والله تعالى [يجعل] [3] أوصاف محاسنه طيبة الأرج، ويبهجه بما يتلى على سمعه الكريم من أخبار البحر التى لا يضيق مجال القول فيها، فقد قيل: حدث عن البحر ولا حرج 2.

*** كتاب آخر فى وفاء النيل:**

من إنشاء القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى:

---

(١) فى النسخ المخطوطة: وايه. وما أثبتناه من الخطط (١/ ٤٧٩).

(٢) فى الأصل، ب: وقعها.

(٣) هذه اللفظة أضفناها ليستقيم الكلام.

---

1 وهدا: الوهد: الأرض المنخفضة.

2 هذه الجملة مثل وليست حديثا، كما أفاده العجلونى فى كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (١/ ٤٢١).

نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا، وأخفاها سبوغا، وأصفاها ينبوعا، وأسناها منقوعا، وأمدها بحر مواهب، وأضمنها [1] حسن عواقب، النعمة بالنيل المصرى الذى يبسط الآمال ويقبضها مده وجزره، ويربى النبات حجره، ويحيى مطلعه الحيوان، ويجنى ثمرات الأرض صنوان وغير صنوان، وينشر مطوى حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ 1. وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا، فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقب، وأمن يوم بشراها من كان خائفا يترقب، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التى حققت الظنون، ووفت بالرزق المضمون، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾2. وقد أعلمناك لتستوفى[2] حقه من الإذاعه، وتبعده من الإضاعه، وتنصرف على ما نصرفك من الطاعه، وتشهر ما أورده البشير من البشرى بإبانته، وتمده بإيصال رسمه مهنأ على عادته.

*** كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء الأديب جمال الدين بن نباتة:

المملوك يقبل الأرض لا زالت مبشرة المنازل مبتهجه [3]، معطرة الأرجاء بكل سايرة أرجه، ميسرة الأوقـات لمقدمتى سماع وعيان كلاهما للمسار منتجه، مستحضرة فى معانى الكرم على دقيقه تشهد حتى بسطة النيل إنها أرفع درجه، وينهى بعد بعد ثناء بالروض بأعطر من شذاه، ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جذواه، وفاء النيل المبارك وحبذا من وفى موافى، ومتغير المجرى وعيس البواد ربه

(١) فى ب، جـ: وأضمها.
(٢) فى الأصل: لتستر فى.
(٣) فى ب، جـ: مبهجة.

1 سورة فصلت، الآية ١٠.
2 وسورة النحل: ٧٩. وسورة النمل: ٨٦. وسورة العنكبوت: ٢٤. وسورة الروم: ٣٧. وسورة الزمر: ٥٢.

العيش الصافى، ووارد يرد من بعيد بعيد، وجميل لا جرم إذا مده ثابت ويزيد، وحائد إذا تدافع [١] حبب تياره يقلد [٢] بره ودره من الأرض على كل جيد، وحامل إذا ذكر للخصب فى مكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد، فالبلاد جبرت بكسر خليجه، واستقامت أحوالها بتعويجه، وأثنت عليه بالآية وسمت لونه الأصهب على زعم الصهباء بأحسن أسمائه، وجعلت ماءه قاهرا لهضبة كل سد ولم يسلطها على مائه، وخلق فلات الدنيا بشائر [٣] مخلقه، وعلق ستره فزكى لونه التبرى على معلقه، وحدث عن البحر ولا حرج، وانفرج البقاع يلوى معصمه فلله أوقات اللوى والمنفرج [٤]، واستقرت الرعايا آمنين آملين، وقطع دابر الجدب حتى ظلمه فى هذه الدولة الفاخرة، وقيل الحمد لله رب العالمين، والله تعالى (يملأ له)[٥] بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا، ويسرهم فى أيامه بكل وارد يقول الإحسان لمتحمله [٦] لو شئت لتخذت عليه أجرا.

*** كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر عن السلطان إلى نائب السلطنة بحلب:

أعز الله أنصار المقر وسره بكل مبهجه، وهناه بكل مقدمة سرور تغدو للخصب والبركة منتجه، وبكل نعمى لا تصبح لمنة السحاب محوجه، وبكل رحمى لا يستعد لأيامها الباردة ولا لياليها المثلجه، هذه المكاتبة تفهمه أن نعم الله وإن كانت متعدده [٧]، فإن أشملها وأكملها، وأجملها وأفضلها، وأجزلها وأنهلها، وأتمها

---

(١) فى جـ: يدفع.
(٢) فى ب: بقدر. وفى جـ: يقدر.
(٣) فى ب، جـ: بسائر.
(٤) فى ب، جـ: المنعوج.
(٥) فى الأصل، ب: بجلاله.
(٦) فى الأصل: لتحمله.
(٧) فى الأصل: متوده.

وأعمها، وأضمها وألمها، نعمة أجزأت المنى والمنح، وأنزلت فى أمرك سفح المقطم أنزل سفح، وأتت بما يعجب الزراع، ويعجل الهراع 1، ويعجز البرق اللماع، ويغل القطاع، ويغل الأقطاع، وتنبعث أفواهه (وأفواجه، ويمد خطاها أمواهه وأمواجه، ويسبق وفد الريح من حيث) [1] ينبرى، ويغبط مريخه الأحمر القمر لأن بيته السرطان كما يغبط الحوت لأنه بيت المشترى، ويأتى عجبه فى الغد بأكثر من اليوم، وفى اليوم بأكثر من الأمس، ويركب الطريق مجدا فإن ظهر بوجهه حمرة فهو ما يعرض للمسافر من حر الشمس، ولو لم تكن شقته طويلة لما قيست بالذراع، ولولا أن مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ما تأخر من ماء حوله الماضى بقاع، بينا يكون فى الباب إذا هو فى الطاق، وبينا يكون فى الاحتراق إذا هو فى (الاحتراق للإغراق) [2]، وبينا يكون فى المجارى، إذا هو فى السوارى، وبينا يكون فى الجباب 2 إذا هو فى الجبال، وبينا يقال لزيادته هذه الأمواه إذ يقال لغلاته هذه الأموال، وبينا يكون ماء إذ أصبح حبرا، وبينا هو يكسب تجارة إذ أكسب [3] بحرا، وبينا يفسد عراه قد أتى بعرار [4]، جسور على الجسور جيشه الكرار، وكم أمست التراع منه تراع والبحار منه تحار، كم حسنت مقطعاته على مر الجديدين، وكم أعانت مرار مقياسه على الغزو من بلاد سيس [5] على العمودين، أتم الله لطفه فى الإتيان به على التدريج، وإجراءه بالرحمة على نقص العون بالتفرج والقلب بالتفريج، فأقبل جيشه بمواكبه، وجاء يطاعن الجدب بالصوارى من مراكبه، ويصافف لجاجة الجسور فى بيداء مججه، ويثاقب القحط بالتراس من بركه، والسيوف من خلجه. ولما تكامل إيابه،

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) فى ب: للاحتراق فى الاعراف. وفى جـ: الإغراق.
(٣) فى الأصل: هو.
(٤) فى الأصل: بعراره. وفى ب: بعوار.
(٥) فى الأصل: سير. وفى ب: السيس.

---

1 الهراع: مشى فى اضطراب وسرعة.
2 الجباب: جمع جب، وهو البئر الواسعة.

وصح فى ديوان الفلاح والفلاحة حسابه، وأظهر ما عنده من ذخائر التيسير وودائعه، ولفظ عموده حمل ذلك على أصابعه، وكانت الستة عشر ذراعا تسمى ماء السلطان، نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود، واستوفينا شكر الله بفيض ما هو من زيادته محسوب، ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود، ووقع تياره بين أيدينا سطورا [1] تفوق، وعلمت يدنا الشريفة بالخلوق، وحمدنا السير كما حمدنا السرى، وصرفنا فى القرى للقرى، ولم نحضره فى العام الماضى فعملنا له من الشكر شكرانا وعمل هو ما جرى. وحضرنا به إلى الخليج وإذا به أمم قد تلقونا [2] بالدعاء المجاب، وقرظونا فأمرنا ماءه أن يحثو من سده فى وجوه المداحين بالتراب، ومر يبدى المسار ويعيدها، ويزور منازل القاهرة ويعودها، وإذا سئل عن أرض الطبالة قال: جننا بليلى، وعن خلجها قال: وهى جنت بغيرنا، وعن بركة الفيل قال: وأخرى بنا مجنونة1 لا نريدها، وما برح حتى تعوض عن القيعان البقيعة من المراكب بالسرر المرفوعه، ومن الأراضى المحروثة فى جوانب الآدر بالزرابى مبثوثه.

وانقضى هذا اليوم عن سرر لمثله فليحمد الحامدون، وأصبحت مصر جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأهلها فى ظل الأمن خالدون، فليأخذ حظه من هذه البشرى التى ما كتبنا بها حتى كتبت بها الرياح إلى نهر المجرة إلى البحر المحيط، ونطقت بها رحمة الله تعالى إلى مجاورى بيته من لابسى التقوى ونازعى المخيط، وبشرت بها مطايا المسير الذى يسير من قوص غير منقوص، ويتشارك بها الابتهاج فى العالم فلا نصر [3] دون مصر بها مخصوص، والله تعالى يجعل الأولياء فى دولتنا يبتهجون بكل أمر جليل، وجيران الفرات يفرحون بجريان النيل.

---

(١) فى الأصل، ب: مسطورا.
(٢) فى الأصل: نطقونا.
(٣) فى ب، جـ: مصر.

---

1 المراد قنطرة المجنونة.

*** كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى إلى بعض النواب:

ضاعف الله نعمة الجناب وسر نفسه بأنفس بشرى، وأسمعه من الهناء كل آية هى أكبر من الأخرى، وأقدم عليه فى المسار ما يتحرز ناقله ويتحرى، وساق إليه كل طليعة إذا تنفس صبحها تفرق الليل وتفرى، وأورد إليه من أنباء الخصب ما يتبرم به محل المحل ويتبرى.

هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تخصه بسلام يرق كالماء انسجاما، ويروق كالزهر ابتساما، وتتحفه بثناء جعل المسك له ختاما، وضرب له على الرياض النافحة خياما، وتقص عليه من بناء [1] النيل الذى خص الله به البلاد المصرية بوفادة وفائه، وأغنى به قطرها عن القطر فلم يحتج إلى مد كافه وفائه، ونزهه عن منة الغمام الذى إذا جاد فلا بد من شهقة رعده ودمعة بكائه، فهى الأرض التى لا يذم للأمطار فى جوها مطار، ولا يرم للقطار فى بقعتها قطار، ولا ترمد الأنوار فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورءوس الجبال، ولا تفقد فيها حلى النجوم لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس، ولا تتمسك فى شتاتها المساكين كما قيل بجياد الشمس، وأين أرض يخد عجاجها بالبحر العجاج، ويزدحم فى ساحاتها أفواج الأمواج، من أرض لا تنال السقيا إلا بحرب لأن القطر سهام والضباب عجاج قد انعقد، ولا يعم الغيث بقاعها [2] لأن السحب لا تراها إلا بسراج البرق إذا اتقد؟ فلو خاصم النيل مياه الأرض لقال عندى قبالة كل عين أصبع، ولو فاخرها لقال أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع. والنيل له الآيات الكبر، وفيه العجائب والعبر، منها وجود الوفا، عند عدم الصفا، وبلوغ الهرم، إذا احتد واضطرم، وأمن كل فريق إذا قطع الطريق، وفرح قطان الأوطان، إذا كسر وهو كما

(١) فى ب: إنشاء.

(٢) فى ب، جـ: نجاعها.

يقال سلطان، وهو أكرم مبتدى، وأعذب مجتنى، (وأعظم منتدى)[1]، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه.

وهو أنه فى ذا العام المبارك جذب البلاد من الجدب وخلصها بذراعه، وعصمها بخنادقه التى لا تراع من تراعه، وحصنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه، وما هى إلا عمد قلاعه، وراعى الأدب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا فى كل يوم بخبر قاعه فى رقاعه، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعا، وأقبلت سوابق الخير سراعا، وفتحت أبواب الرحمة بتغليقه، وجد فى طلب تخليقه، تضرع بمد ذراعه إلينا، وسلم عند الوفاء أصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره. فرسمنا بأن يخلق، ويعلم تاريخ هنائه ويعلق، فكسر الخليج وقد كان يعلوه فوق موجه، ويهيل كثيب سده هول [2] هيجه، ودخل يدوس زرابى الـدور المبثوثة، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خبايا موروثة، وبرق كالسهم من قسى قناطره المنكسرة، وعلاه زبد حركته ولولاه ظهرت فى باطنه من بدور أناسه أشعتها المغلوسة، وبشر بركة الفيل ببركة الفال، وجعل المجنونة من تياره المنحدر فى السلاسل والأغلال، وملأ أكف الرجاء بأموال الأنواه، وازدحمت فى عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد، وهنأت طوالعه بالطوالع التى نزلت بركاتها من الله تعالى على البلاد.

وهذه عوائد الألطاف الإلهية بنا التى لم نزل نجلس على موائدها، ونأخذ منها ما نهبه لرعايانا من فوائدها، ونخص بالشكر قوادمها [3] فهى تدب حولنا وتدرج، ونخص قوادمها بالثناء والمدح والحمد [4]، فهى تدخل إلينا وتخرج.

فليأخذ الجناب العالى حظه من هذه البشرى التى جادت بالمن والمنح، وانهلت

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) فى الأصل: قول.
(٣) فى ب، جـ: فواديها.
(٤) فى ب، جـ: والجهر.

أياديها المغدقة بالسح والسفح، وليتلقاها بشكر يضيء به فى الدجى أديم الأفق، ويتخذها عقدا يحيط منه بالعنق إلى النطق. وليتقدم الجناب العالى بألا يحرك الميزان فى هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كل عامل فى بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم حتى لا يرى فى إسقاط الجباية خيانة، والله يديم الجناب العالى لقص الأنباء الحسنة عليه، ويمتعه بجلاء عرائس التهانى والأفراح لديه.

*** كتاب فى وفاء النيل**[1] **:**

(وأفاض بره العميم على الغنى والفقير، والقانع والمعتر 1، وأحيا الأرض بعد موتها) [2]، وتدارك برحمته دماء الدهماء بعد إذ أشرفت على فوتها، وأسمع نداها بلسان الحال الحالك قبل صوتها، وأجرى الخلق على [3] عوائد كرمه، وأجرى لهم بقدرته من حجب الغيث مواد نعمه، وأعلى لديهم موارد نيلهم حتى كاد ما يشرب بعروق ساقه يتناول بفمه، وأمر البحر فأقبل بالفرج القريب من الأمد البعيد، وأذن له فى الترفع عن محله فسجد على التراب شكرا وتيمم الصعيد وإن لم يبق به الآن على الأرض صعيد، وأسرى منه ركائب السير ووالى الأقطار، ففى كل ناد من هديره حاد، وفى كل بر من بروده بريد، وذكر بإحياء الأرض بعد موتها ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ 2 ، ونشر ألويته على الربى لأهل الأرض بشرا بين يدى رحمته ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ** ﴾ 3، وأقبل بعد تقصير عامه الماضى بوجه عليه حمرة الخجل، وعزم سبق سيفه إلى المحل العذل 4 بل الأجل، واستظهار على كل ما علا

---

(١) بعد هذا العنوان يوجد بياض بالنسخ الخطية كلها.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب.

(٣) فى جـ: قبل.

---

1 القانع: الذى يسأل الناس. والمعتر: الذى يتعرض ولا يسأل.

2 سورة ق، الآية ٣٧.

3 سورة الشورى، الآية ٢٨.

4 العذل: اللوم. وفى المثل: « سبق السيف العذل » يضرب لما قد فات ولا يستدرك.

من الأرض حتى إن الحرمين باتا منه على وجل، ومهد الأرض التى كانت ترقبه، فهو لها المنتظر على الحقيقة، وطوى بطن الثرى [1] فنتج الخصب بينهما وذبح المحل فى الحقيقة، وقطع الطـرف فأمن كل حاضر وباد، ومقيم وغاد، واتبعه الرى كالروى [2] حين أضحى كالشعراء تهيم فى كل واد، وعمت [3] بركاته على الأرض فتركن كل قرارة كالدرهم من الخصب مربعا، وأربى ريه على ما سلف من السنين، فأضحى كهوى ابن أبى ربيعة، يقيس ذراعا كلما قسن أصبعا، وتجعد على الآكام فخيل للعيون أنها تسيل، وشيب مفارق الربى ببياض زبده وعادة بياض المشيب أن يخضب بورق النيل، وكان ما بقى من المحل قد جعل بينه وبينه سدا، ونشر له وراءه وهو يملى ويعد له عدا، فصدمه بقلبه وجعله دكا، إذا جاء أمر ربه وأدركه وملكه، وسفك دمه فجرى مستطيلا إذ سفكه، (ووفى بما وعد [4] من ظفـره) [5].

*** كتاب بشارة بوفاء النيل:**

من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر عن الملك المنصور قلاوون إلى النائب بحلب:

أدام الله نعمة المجلس ولا برحت التهانى إلى ربعه مزفوفة، والأمانى بالنجاح إلى صقعه محفوفة، والبشائر يهدى إليه منها ما لا يستبعد بيداء ولا يستهول تنوفة 1، والأقاليم تستدنى منها كلما تغدو له عين الرياض محدقة وعين الكمال مطروفة. هذه المكاتبة إليه تثنى على مبراته التى لا تبرح إلى السداد مصروفة، ولا تنفك محامدها على ما يجريه الله من الخيرات موقوفة، وتفهمه بشرى يرى بشرها فى أسارير وجوه

(١) فى ب، جـ: الثريا.
(٢) فى الأصل: لا الروى.
(٣) فى ب، جـ: وادرعت.
(٤) فى الأصل: قعد.
(٥) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

1 التنوفة: الفلاة لا ماء فيها ولا أنيس. والجمع: تنائف.

الغمائم، ونشرها فى صفحات النسيم وأعطاف الكمائم، وذلك ما هيأه الله من زيادة النيل الحسنة التصريف، والضيف الذى يزور البلاد المصرية فى كل سنة ولكنه يؤثر التخفيف، ويأتى ووجهها مغبر، ونبتها [1] مصفر، وساكنها مضطر، فما يزاولها إلا وثغرها مفتر، وضرعها قد در، وبرها قد بر، وقسم الخصب لها قد أبر، ورخاؤها قد كر، وجدبها قد فر.

ولما كان يوم كذا تكامل وفاؤه ستة عشر ذراعا، (فأتينا المقياس) [2] فضمخنا أركانه، وعطرنا حيطانه [3] ، وقلنا لعموده أهلا وسهلا بعمود المصباح، وبشير الأرواح، وديوان الفلاحة والفلاح، والذى هو حقيق بأن يوصف بـ:

دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قام بالراح 1

وعدلنا إلى الخليج فإذا عليه أمة من الناس يستسقون بل يستشفون، وأمم كأنهم جـان ولكنهم لا يستخفون، ورجعنا وقد طاف بنا من الحراريق كل ذوات أجنحة، وربات خواف وقوادم مترنحة، فاستقبلناهم فقالوا: جاء الخير، وشاهدناهم فقالوا: هذا سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير. فأمرنا بالخليج فتلقف ثعبانه ما صنعوا، ووصل ما قطعوا، وفرق من التراب ما جمعوا، وانقضى هذا اليوم وبشائره قد ملأت الربى والوهاد، وهمت وهامت فى كل واد، فيبشر بذلك كل مستسقى سحاب ومستنزله، وكل تالى كتاب ومرتله، وكل مرهف سيف ومجرد مفصله [4]، وكل حالب ضرع، وكل طالب حرث وزرع، وكل ذى إبل وشاء، وكل

---

(١) فى ب، جـ: وبيتها.

(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٣) فى الأصل، جـ: أركانه.

(٤) فى ب: متصله. وفى جـ: منصله.

---

1 هذا البيت لعبيد بن الأبرص. وقيل لأوس بن حجر، يصف سحابا كثير المطر.
والمسف: الذى قد أسف على الأرض، أى: دنا منها.
والهيدب: سحاب يقرب من الأرض، كأنه متدل، يكاد يمسكه من قام براحته.

ذى ثغاء ورغاء، وكل ذى صرير وصليل 1، وكل ذى تموين وتمويل، وكل ذى تعويص وتعويل، فإن الجار للجار يفرح، وإذا أصبح هذا بخير من الله فليسأل الله ذاك أن يصبح كما أصبح، والله يجعل دولتنا بالخصب والنماء تفخر، ويضع البركة حيث يحصل اليأس حتى لا يغدو بعض الممالك من بعض يسخر.

*** كتاب (فى وفاء)[1] النيل:**

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضا عن الملك المنصور قلاوون إلى الملك المنصور صاحب حماه:

ولا برح يبشر بعمل زيادة غوث تنمى، وبكل إفادة غيث تهمى، وبكل إيادة غيث لسمع المحل يصم ولقلب الحدث يصمى، ولا زال يهنأ بكل موهبة تجمع خيرات الدنيا والدين، وتؤتى أكلها كل حين، وتأتى من الخصب بالخبر اليقين، وتبين ألطاف مواقع نعم الله بالعام الذى حمى هذا المصر عن أخذه بالسنين. المملوك يخدم خدمة ولا كنهر المجرة وقد بدت نجومه تتلقى لوفاء التهانى، ولا كالمقياس وقد خضب أنامله وكحل جفونه فرحا بما حصل له من القرب منا والتدانى، ويصف ولاء يتجاذب ماء المزن وماء العيون صفاه، ويتواثب موج البحر وفوح الزهر ليحوز هذا رواءه وهذا رواه، ويطلع العلم الشريف على تجدد نعمى جليلة، وموهبة جزيلة، وإفادة تتزين بها خدود الأنهار الأسيلة، وتحسن أهداب العيون التى كانت بإثمد الثرى كحيلة، ويتجمل عارض كل روض ويزهق عذار كل خميلة، وهو النيل الذى أهدى للأمة لطفا فلطفا، وإن كان إبراهيم الثرى [2] الذى استحق أنه يقال له وفى، وأتت كراماته بما غطى الثرى، وعادة الكرامة أنها تكون كشفا.

ولما كان يوم كذا جاء على عادته فى الزيادة والزيارة، وحضر من معصفر أثوابه

---

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: بشارة.

(٢) ليست فى جـ.

---

1 الصرير والصليل: الصوت.

فى أجمل شارة، وأقبل لابسا من تفريك تياراته فى أحسن لباسه، وتلقيناه فأشخص بين أيدينا شمعة لا تقط ولا تطفى من عمود مقياسه، فضمخناه طيبا، واستشهدنا من أبى تمام [1] حبيبا، فأعجبنا من تلاطم أمواجه حسن نشيده ، وراقنا من انبجاسه، وحسن مقياسه، براعة استهلاله وبيت قصيده، وأبنا إلى الخليج فإذا به قد وقف حيث تقف جيادنا عند سده، ولما رآنا أقبلنا قبل الأرض وعفر فى الثرى صقيل خده، فأجبنا له الإفاءة والإفادة، وأمرنا بأن يجرى فى زيادته بزيارة منازل القاهرة على العادة، فاحترق كل حجاب، وقالت له منازل القاهرة: كم لى على هجرك من طاقة فهل إلى وصلك من باب؟ وصدرت هذه الخدمة وقد قضينا ما يجب من حق هذا الموسم الذى يستبشر به الدانى والقاصى، (ويحسن بنيله الإقلاع لعسى يتشبه به العاصى) [2]، (ويحمل فيه بر منصوره أعز الله جانبه بسفاحه) [3].

*** كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضا:

ولا برح برحمة الله وفضله يستبشر، ومن شكره على نعمه يزيد ويستكثر، ولا زال بأحسن تهانى الأمانى يختص وبأجمل ذخائر البشائر يستأثر، صدرت هذه المكاتبة تبشره بنعمى إلى البلاد والعباد قد تحببت، وإلى الربى والوهاد قد تسببت، وبها كل أرض مجدبة قد اهتزت وربت، وذلك أن النيل المبارك قد أجاب داعيه، وجرى ساعيه، وجاء والأمة إليه مجتاحة ومحتاجة، ويعقوب مدراجه اليوسفية تود لو قضت ما فى نفسه من حاجة، وحسن فى المناب عن المنافع، وأجمل ذراعه فى سد الذرائع، وشهد جنازة المحل حين حمل من زيادته على الأصابع، وأخذ المقياس أهبته للخلوق، وضمخ حتى لا يتميز السحائب عليه بشىء حتى ولا بلمع البروق، وراق الناس منظره الوسيم وأحسن ما كان النيل حين يروق. وشاهد الناس من

---

(١) فى الأصل، ب، جـ: تمامة.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) ما بين القوسين ليس فى ب.

فخار هذا المقياس وعموده ما فات السحائب توطئة وشهودا [1]، وما أمسى به حين خلق وكان عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا. وكملت المسرة بكسر الخليج الذى هو رحيق مصر المختوم، وعقدها المنظوم، وطراز ملبسها المرقوم، ومجرة سمائها التى كم بها من المراكب أبهى من نيرات النجوم، فليأخذ حظه من هذه البشرى التى[2] تستبشر بها السهول والحزون [3] ، وبحقها لو كتبت الرياض بشائرها على الخدود بماء العيون، والله يحقق فى سعادته الظنون.

*** كتاب فى البشرى بالنيل:**

من إنشاء ابن عبد الظاهر أيضا:

هذه المكاتبة تبشره بنعمى تقبل مختالة فتجر على الربى والوهاد ذيولا، وتجرد فى وجه المحل سيفا مسلولا، وهو النيل الذى أتى ووجه الأرض قد اغبر، وثغر يراعه قد بر، والخصب قد افتر، وبره قد أقفر من كل بر، فحسن فى مسرى مسراه، وجعل على اسم مجراه، وجاء يركض فى مضماره فلا يلحق، ويجرى فى تياره فلا يسبق، فكم مسنى قحط دمر عليه من تلك الفجاج فى مسيل [4] ، وكم ميت جذب عليه التراب فى تلك الجسور قد هيل [5] ، وكم عروس قرية تبنى [6] منها فى مسرى فكان كما قيل مسرى عروس النيل، وتوافى الناس إلى المقياس فسألوا منه عن يقين الوفا أخبر من جهينة، وشاهدوا منه أجمل من جميل، ومن بنانه المخلق أحسن من بنان بثينة، ورأوا من وفائه صادقا لا يجوز عن عهوده ولا يمين 1، وبطلت القاعدة من بنانه المخلق حين وفا من أنه ليس لمخضوب البنان يمين، وكان هذا الموسم من أشرف المواسم لما

---

(١) فى الأصل، جـ: وتوطيعا.
(٢) فى الأصل: الذى.
(٣) فى ب: والحروف. وفى جـ: والجروف.
(٤) فى ب: سبيل.
(٥) فى الأصل: عيل.
(٦) فى ب، جـ: لله.

1 ولا يمين: أى: لا يكذب.

يشتمل عليه من بشائر تملأ الوجود، ونعمة على الخلائق تعود، ومنة جرى بها من اليبس الماء فى العود، وكيف لا ويومها يوم سعد السعود، فليشع هذا الخبر ساعة تبدئ وتعيد، ويوجد بردائها بردا على كبده ويزيد، لا يزال مخصوصا بالاستبشار، تارة بكسر الأعداء وتارة بكسر البحار، وآونة بإحياء الموات بالنيل وحينا بإماتة الأحياء بالفوات من الكفار.

*** كتاب بشارة النيل:**

من إنشاء الشيخ بدر الدين بن الصاحب، كتب به إلى ناظر الجيوش يهنئه:

ثبت الله سلطان النيل العالى، وأطلق سيوفه فى هام السعر الغالى، واستخدم له السحائب، فى الجباية لإنفاق الرغائب، وبسط ملكه حتى لا ينظر الصباح وجهه إلا فى مرآته، ولا تسحب الرياح أذيالها إلا على حافاته، وأجرى عذبه رضابا 1 فى ثغر الإسلام، وجعله عينا له على عدو الأنام [1]، ونظم حبابه عقودا فى أجياد 2 الرياض، ومتع النسيم بأردافه ليصبح عليله كأجفان الغيد الصحاح المراض، وأسمعنا تلاوة مناقبه على كراسى السفن وأعواد منابرها، ورقم محاضر مفاخره على طروسه بألسن باديها وحاضرها، وشنف أسماع الدنيا بأخباره السارة، وعيشته الراضية القارة، وجعل أهله فى ثمل من رحيقه، وفى عيد أكبر لا يشان بأيام تشريقه، ولا زالت أصابعه المباركة والمنافع فى قبضها، والآمال إذا ضاقت تنبسط ببسطها، والذهب الجامد لا يسبك إلا من ذهبها السائل، والغنى المسبول نصا يفضلها [2] عن حال السائل.

صحت له كيمياء السعد حين وفي إذ فضة الماء أضحى كسرها ذهبا

---

(١) فى الأصل: الإعدام.

(٢) فى الأصل: بنصلها.

---

1 الرضاب: الريق. ويطلق على رغوة العسل وقطع السكر.

2 أجياد: أعناق. والواحد: جيد.

ولا برحت له اليد البيضاء تعلو على السواد بالسيوف الحمر، وتفوق الحياة على الممات وتبسط الأصابع للدعاء بطول العمر، ولا زالت موارده موارد الأنس، وحضراته الكونية مستعارة من حضرة القدس، حتى تفتح أقفال الأزهار، وتفصح خرس الأطيار، ويستنطق ناظره بالتسبيح والأذكار، ويطفئ حر الشمس فالأيام به كلها بكر وأسحار، ويصير عمود وفائه كعصا الكليم يفجر [١] لمنفعة شهور السنة اثنتى عشرة عينا، ويضرب البحر فينفلق يمينا ويسارا ويصير بنطقه كل عين عينا، ويصبح كلسان فى فم مقياسه صادق حلاوة الأخبار لا يعرف مينا، فيطلع طلوع القمر بنسخ آية ليل [٢] السواد، وينفلق انفلاق الصبح فيحمد مسراه كل العباد، ويوقع قلم الطومار 1 من عمود مقياسه، بنافذ أمره العالى على أطراسه [٣]، تجرى على عاداته الحسنة، وعلى رسومه ألف سنة، وأن يصير معلومها من الفضة ذهبا، وأن يمد لرزقها من السماء سببا، فمد ظله على الرعايا، وأخرج من زوايا الأرض خبايا، وكتب لها أمانا من النقم، وتمشى فى مفاصلها تمشى البرء فى السقم، حتى حف بالخمائل والروض المثمر على عروشه، فتقر به عين الملك وناظر جيوشه.

فللنيل فخر إذ حكاه أصابعا ... خلقن لأرزاق العباد مفاتحا

ولكن أياديه تعم معاليا ... إذا غم هذا النيل فينا أباطحا

إذا ضاق صدر الدهر أو أشكلت به ... خطوب تراه شارحا ثم سارحا

وإن أذفرت [٤] دنيا بأفعال أهلها ... شممنا له (مسكا من الذكر) [٥] فائحا

---

(١) فى الأصل: ينجر.

(٢) فى الأصل: الليل.

(٣) فى ب، جـ: قرطاسه. وكلاهما بمعنى.

(٤) فى الأصل: أوفرت. وزاد بعدها فى ب: صدر. وأذفرت، أى: اشتدت رائحتها الطيبة.

(٥) فى جـ: ذكرا من المسك.

---

1 الطومار: الصحيفة. والجمع: طوامير.

فلا زالت الأيام أعياد نعمة بطلعته ما هيج الشوق صادحا 1

*** كتاب فى وفاء النيل:**

من إنشاء الأديب تقى الدين أبى بكر بن حجة[1] عن السلطان الملك المؤيد شيخ سنة تسع عشرة وثمانمائة:

ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذى عاملنا فيه بالحسنى و زيادة، وأجراه لنا فى طرق الوفاء على أجمل عادة، وخلق أصابعه ليزول الإبهام فأعلن المسلمون بالشهادة. كسر بمسرى فأمسى كل قلب بهذا الكسر مجبورا، واتبعناه بنوروز وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدى مكسورا، دق قفا السودان فالراية البيضاء من كل قلع عليه، وقبل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه، وشبب خريره فى الصعيد بالقصب، ومد سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب، فضرب الناصرية واتصل بأم دينار، وقلنا: لولا أنه صبغ بفوه[2] لما جاء وعليه ذلك الاحمرار. وأطال الله عمر زيادته فتردد إلى الآثار، وعمته البركة فأجرى سواقى مكة إلى أن غدت جنة تجرى من تحتها الأنهار، وحضن مشتهى الروضة فى صدره، وحنا عليها حنو المرضعات على الفطيم.

وأرشفه على ظمإ زلالا ألذ من المدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته2 الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النوى والحب، فأرضع جنين النبت، وأحيا له أمهات العصف 3 والأب 4، وصافحته

(١) فى جـ: حجلة..

(٢) فى جـ: بقوة.

1 صادحا: وصف من قولنا: صدح الطائر صدحا، إذا رفع صوته فأطرب.

2 سلافة كل شىء: خالصه.

3 العصف: ورق الزرع الذى ينفتح عن الثمرة.

4 الأب: العشب، رطبه ويابسه.

كفوف الموز فختمها بخواتمه العقيقية، ولبس الورد تشريفه وقال: أرجو أن تكون شوكتى فى أيامه قوية، ونسى الزهرى بحلاوة لقائه مرارة النوى، وهامت به مخدرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدة الهوى، واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرى من الديون. ومازج الحوامض بحلاوته فهام الناس بالسكر والليمون، وانجذب إليه الكباد 1 وامتد، ولكن قوى قوسه لما حظى منه بسهم لا يرد، ولبس شربوش الأترج وترفع إلى أن لبس بعده التاج، وفتح منشور الأرض لعلامته بسعة الرزق وقد نفذ أمره وراج، فتناول معالم البشير وعلم بأقلامها، ورسم لكل سد بالإفراج، وسرح بطائق السفن فخفقت أجنحتها بمخلق بشائره، وأشار بأصابعه إلى قتل المحل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره. وحظى بالمعشوق وبلغ من كل منية مناه، فلا سكن على البحر إلا تحرك بساكنه بعدما تفقه وأتقن باب المياه، ومد شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الخور 2، وزاد بسرعة فاستجلى المصريون زائده على الفور، ونزل فى بركة الحبش فدخل التكرور فى طاعته، وحمل على الجهات البحرية فكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته [1]، وأظهر فى مسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه، وصار أهل دمياط فى برزخ بين المالح وبينه، وطلب المالح رده بالصدر وطعن فى حلاوة شمائله، فما شعر إلا وقد ركب عليه ونزل فى ساحته، وأمست واوات دوائره على وجنات الدهر عاطفة، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجوارى واضطربت كالخائفة، ومال شبق النخيل إليه فلثم ثغر طلعه وقبل سالفه. وأمست سود الجوارى كالحسنات فى حمرة وجناته، وكلما زاد زاد الله فى حسناته، فلا فقير سد إلا حصل له من فيض إنعامه فتوح، ولا ميت خليج إلا عاش به ودبت فيه الروح، ولكنه احمرت عينه على الناس بزيادة وترفع، فقال له المقياس:

---

(١) فى ب، جـ: بشامته.

---

1 الكباد: الأترج.

2 الخور: عنق من البحر يدخل فى الأرض. وقيل: هو خليج من البحر.
والمراد بفم الخور ذلك الخليج الذى أمر بحفره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ.

عندى قبالة كل عين أصبع، ونشر أقلام قلوعه وحمل على ذا الخرير زمجره، ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزمنا المؤيدى وكسره.

وقد آثرنا المقر بهذه البشرى التى[1] فضلها برا و بحرا، وحدثنا عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالا وصدرا؛ ليأخذ حظه من هذه البشرى البحرية بالزيادة الوافية، وينشق من طيها نشرا، فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاسا عاطرة، والله تعالى يوصل بشائرنا الشريفة بسمعه الكريم ليصير منها فى كل وقت مشنفا 1، ولا برح من نيلها المبارك وأنعامها[2] الشريفة على كلا الحالين فى وفا.

وقال القاضى الفاضل فى وصف النيل:

النيل المصرى الذى يكسو الفضاء ثوبا فضيا، ويدلى من الأرض ماءه سراجا من النور مضيا، وتدافع تياره واقفا فى صدر الجدب بيد الخصب، ترضع أمهات خلجه المزارع فيأتى أبناؤها بالعصف والأب.

وقال أيضا:

وأما النيل فقد امتدت أصابعه، وتكسرت بالموج أضالعه، ولا[3] يعرف الآن بمصر قاطع طريق سواه، ولا من يرغب ويرهب إلا إياه.

وقال أيضا:

وأما النيل المبارك فقد ملأ البقاع، وانتقل من الأصبع إلى الذراع، فكأنما غار على الأرض فغطاها، وأغار عليها فاستبعدها وما تخطاها.

---

(١) فى الأصل: الذى.
(٢) فى ب، جـ: وأنعامنا.
(٣) ليست فى الأصل.

---

1 مشنفا: ممتعا. يقال: شنف الآذان بكلامه، أى: أمتعها به.

وقال ضياء الدين بن الأثير:

أما النيل المبارك فقد (تنفس حتى قامت أضالعه، وأشارت إلينا بالخصب أصابعه، حلا مذاقا فحكى جنى النحل، واحمرت صفيحته فقلنا: أتى قاتل المحل.

وقال بعضهم: وأما النيل فقد) [1] زاد نيله، وتراكم سيله، ولازم المعشوق ملازمة العاشق، وقطع الطريق بكثرة مياهه وكاد يصل بارتفاعها إلى الطارق، وشبك بالخمس أصابع أصابعه، وأغار على ما هنالك من الضياع الثلاث والعدوية 1 رابعة، وتوجه إلى مصر فعمم جهاتها وما خصص، وأقام بدار النحاس ورصص، وعقدت خيامه بأذيال الجبال الطنب 2، وغسل بمائه الجار الجنب، وأذاق الشجر الأخضر، من محمر [2] مائه الموت الأحمر.

وقال الأسعد بن مماتى:

وأما النيل فقد امتدت أصابعه، وامتلأ حتى تكسر بالموج أضالعه، وحلا كما احتلى [3] خلايا النحل، واحمر فكأنه قد سفك دم المحل، قد هاج، فأوتر قسى الأمواج، فسكنت النفوس، وطبقت المياه الأرض فكأنها أنوار الشموس.

وقال أيضا: وجملة الأمر، أن النيل قصر واخضر [4] لون مائه وكان صفاء العيش إذا احمر، وضعفت مدته، وقصرت مدته، فانكشفت الحال، وانكسف البال، وربما جن فجرى مسلسلا، وظهرت فيه حمرة كانت من التقصير خجلا.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٢) فى ب، جـ: محو.
(٣) فى الأصل: احتمل.
(٤) ليست فى الأصل.

---

1 العدوية: المراد بها منطقة المعادى.
2 الطنب: حبل يشد به الخباء والسرادق ونحوهما.

ذكر فوائد لطيفة [1] لها تعلق بالنيل

فى (الخطط) 1 للمقريزى: يقال إن أهل مصر أقاموا عليهم مصريم بن بيصر ملكا فى (أيام فالج بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، فملك مصر وبنى) [2] مدينة تشرف على النيل وسماها على اسمه، ويقال إنه الذى غرس بها الأشجار، وكانت ثمارها عظيمة بحيث تشق الأترجة نصفين فيحمل البعير نصفها، وكان طول القثاء أربعة عشر شبرا. (ويقال: إنه أول من وضع السفن بالنيل، وإن سفينته كانت ثلاثمائة ذراع طولا فى عرض مائة ذراع، وأظن ذلك من كتاب أخبار المسعودى) [3].

ووصف بعضهم مصر فقال: نيلها عجب، وأرضها ذهب، وخيرها جلب، وملكها سلب، ومالها رغب، وفى أهلها صخب، وطاعتها رهب، وسلامهم شعب، وحربهم [4] حرب، وهى لمن غلب.

ووصف آخر مصر فقال: ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة [5] خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء 2.

---

(١) ليست فى جـ.
(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٣) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٤) فى الأصل: حزبهم.
(٥) فى ب: بردة.

---

1 (١/ ٢٦).

2 قال المقريزى فى الخطط (١/ ٢٦) : أما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء، فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابى وتلال مثل الكواكب قد أحيطت بها المياه من كل وجه، فلا سبيل إلى قرية من قراها إلا فى الزوارق. =

قال المقريزى فى الخطط 1: من عادة نيل مصر إذا كان عند ابتداء زيادته يخضر ماؤه، ويقول العامة من أهل مصر: قد توحم النيل، ويرون أن الشرب منه حينئذ مضر. ويقال فى سبب اخضراره: إن الوحوش لا سيما الفيلة ترد البطيحات التى (فيها الماء) [1] فى أعالى النيل وتستنقع فيها (مع كثرة عددها لشدة الحر هناك، فإذا وقع المطر فى الجهة الغربية فى أوقاته عندهم تكاثرت السيول حينئذ فى البطيحات، فيخرج ما كان فيها) [2] من الماء الذى قد تغير، ويمر إلى مصر ويجىء عقبه الماء الجديد وهو الزيادة بمصر، فحينئذ يحمر الماء لمخالطته الطين الجرز الذى تأتى به السيول. انتهى.

قلت: وما أحسن قول جلال الدين بن الخطيب داريا:

عجبا لنيل ديار مصر إنه عجب إذا فكرت فيه يعظم
يطأ الأراضى فهى تلقح دائما من مائه وهو الذى يتوحم

وفى الخطط 2 للمقريزى: قال المسبحى: إن الصنف المعروف بالبلطى من أصناف السمك أول ما عرف بنيل مصر فى أيام الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله ولم يكن يعرف قبل فى النيل، وظهر فى أيامه أيضا سمك يعرف باللبيس. قال وغالب الظن أنه من أسماك البحر الملح دخلت فى الحلو، وإنما سمى اللبيس لأنه يشبه البورى فالتبس به.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.
(٢) ما بين القوسين ليس فى ب.

= وأما المسكة السوداء فإن فى شهور بابه وهاتور وكيهك ينكشف الماء عن الأرض، فتصير أرضا سوداء، وفى هذه الأشهر تقع الزراعات.
وأما الزمردة الخضراء فإن فى أشهر طوبه وأمشير وبرمهات يكثر نبات الأرض وربيعها، فتصير خضراء كأنها زمردة.
وأما السبيكة الحمراء فإن فى أشهر برمودة وبشنس وبؤونة يتورد العشب ويبلغ الزرع الحصاد، فيكون كالسبيكة التى من الذهب منظرا ومنفعة.
1 (١/ ٦١).
2 (١/ ٦٧).

obeikandl.com

وفى كتاب الفلاحة لابن وحشية: ذكر أن فى مصر إذا زرعوا يخرج من المد ثلاثمائة مد لحرارة الهواء وكثرة لدونة 1 ماء النيل.

قال أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس فى تاريخ مصر: كان بالإسكندرية صنم يقال له شراحيل على (حشفة من حشف) [(١)] البحر مستقبل بأصبعه من كفه قسطنطينية، لا يدرى أكان مما عمله سليمان النبى صلى الله عليه وسلم أو عمله الإسكندر، فكان الحيتان يدورون بالإسكندرية ويصاد عندها فيما زعموا [(٢)].

قال زيد بن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أخبرنى أبى عن أبيه: أنه انبطح على بطنه ومد يديه ورجليه فكان طوله قدر الصنم، فكتب رجل يقال له أسامة بن زيد كان عاملا على مصر للوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين: إن عندنا بالإسكندرية صنما يقال له شراحيل من نحاس، وقد غلت علينا الفلوس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ننزله ونضربه فلوسا فعل، وإن رأى غير ذلك فليكتب إلى من أمره. فكتب إليه: لا تنزله حتى أبعث إليك ضمنا [(٣)] أمناء يحضرونه [(٤)]، فبعث إليه رجالا أمناء حتى أنزل من الحشفة، فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة، فضربه فلوسا، فانطلقت الحيتان فلم ترجع إلى ما هنالك.

فى (أخبار مصر) للأستاذ إبراهيم بن وصيف شاه فيما نقله عنه المقريزى فى كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) : أن أول غلاء وقع فى أرض مصر كان فى زمن الملك الثانى عشر [(٥)] من ملوك مصر قبل الطوفان واسمه أقرس بن مناوش، وكان سببه قلة ماء النيل، ثم وقع غلاء بعد الطوفان فى أيام أتريب وهو الثالث عشر من ملوك

---

(١) فى الأصل، ب: حسنة من حسن. والحشفة: صخرة تكون فى البحر.
(٢) فى الأصل: زرعوا.
(٣) ليست فى الأصل.
(٤) ليست فى جـ.
(٥) فى إغاثة الأمة: السابع عشر.

---

1 لدونة: لين.

مصر بعد الطوفان، وسببه أن النيل توقف فلم يجر ماؤه أربعين سنة [1] حتى أكلت البهائم بأرض مصر ولم يبق بها بهيمة، ومات عامة أهل مصر جوعا، ورئى أتريب ماشيا، ثم أضعفه الجوع حتى لم يبق به حركة سوى أنه يقبض يديه ويبسطهما من الجوع، فلما اشتد الأمر عليه كتب إلى لاوذ بن سام بن نوح بذلك، فكتب لاوذ إلى أخيه أرفخشذ بن سام، فلم يجبه بشيء حتى بعث الله هودا عليه السلام، فكتب إليه أتريب يلتمس منه الدعاء برفع ما به من أرض مصر، فأجابه هود أنى أدعو لكم فى يوم كذا فانتظروا جرى النيل، فلما كان ذلك اليوم جمع أتريب من بقى بمصر من الرجال والنساء فدعوا وضجوا، وكان ذلك عند انتصاف النهار من يوم الجمعة، فأجرى الله سبحانه النيل فى تلك الساعة، إلا أنه لم يكن عندهم ما يزرعونه، فأوحى الله تعالى إلى هود أن ابعث إلى أتريب مصر أن يأتى كهف [2] جبلها ويحفر مكان كذا. فكتب هود إلى أتريب يعلمه، فجمع قومه وحفر، فإذا عقود قد عقدت بالرصاص وتحتها غلال كأنما وضعت حينئذ، وهى باقية فى سنبلها لم تدرس، فمكثوا ثمانى [3] شهور فى نقلها، وزرعوا منها وتقوتوا نحو خمس سنين، فذكر أن أولاد قابيل بن آدم عليه السلام لما انتشروا فى الأرض وملكوها علموا أن حادثة تحدث فى الأرض، فبنوا هذا البناء ووضعوا فيه هذه الغلال، فزرعت مصر وأخصبت وكثر الرخاء ودام مدة مائتى سنة، وبيع كل أردب بدانق 1 وأقل، وكانت مدة ملك أتريب هذا ثلاثمائة وستين سنة، وعاش خمسمائة سنة.

وفى الخطط 2 للمقريزى: فى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة صيد ببحيرة تنيس حوت طوله ذراع، ونصفه الأعلى فيه رأس وعينان وعنق وصدر، على صورة أسد، ويداه فى صدره بمخاليب، ونصفه الأدنى صورة حوت بغير قشر، فحمل إلى القاهرة.

---

(١) فى إغاثة الأمة: مدة مائة وأربعين.
(٢) فى إغاثة الأمة: تحت.
(٣) كذا بالنسخ الخطية، والوجه أن تكون: ثمانية.

---

1 الدانق: سدس الدرهم.
2 (١/ ١٩٢).

وفيها قال عبد الله بن أحمد بن سليم الأسوانى فى كتاب (أخبار النوبة) : الجنادل شعاب معترضة فى النيل بين أسوان والنوبة، لانصباب النيل فيها خرير عظيم ودوى يسمع من بعد، وأشدها صعوبة جبل معترض فى النيل من الشرق إلى الغرب، والجنادل [1] تصب من ثلاثة أبواب وربما رجع إلى بابين، شديد الخرير عجيب المنظر لتحدر الماء عليه من علو الجبل، وسعة النيل هناك من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل. وقيل: إن التمساح لا يضر هناك، ويأتى النيل هناك فى وقت الزيادة بخشب الساج والسنط لا يدرى من أين يأتى، ويتشعب النيل عند بلاد علوة على سبعة أنهار، فمنه نهر يأتى من ناحية الشرق كدر الماء، يجف فى الصيف حتى يسكن بطنه، فإذا كان وقت الزيادة نبع فيه الماء وزادت البركة التى فيه، وأقبل المطر والسيول فى سائر البلد، فوقعت الزيادة فى النيل.

وقيل: إن آخر هذا النهر عين عظيمة تأتى من جبل.

قال المؤرخ: وحدثنى ميمون صاحب بلد علوة: أنه يوجد فى بطن هذا النهر حوت لا قشر له، ليس هو من جنس ما فى النيل.

ثم النيل الأبيض وهو نهر يأتى من ناحية المغرب شديد البياض مثل اللبن. قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من ناحية المغرب عن النيل الذى عندهم وعن لونه، فذكروا أنه يخرج من جبال الرمل، وأنه يجتمع فى بلد السودان فى برك عظام ثم ينصب إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض، فإما أن يكون يكتسب ذلك اللون مما يمر عليه، أو من نهر آخر ينصب إلى هذا.

ثم النيل الأخضر، وهو نهر يأتى من القبلة مما يلى الشرق، شديد الخضرة صافى اللون جدا، يرى ما فى قعره من السمك، وطعمه مخالف لطعم النيل، يعطش الشارب منه بسرعة.

وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف، ويأتى فيه وقت الزيادة خشب

---

(١) فى الخطط للمقريزى: والماء.

الساج، والبقم، وخشب له رائحة كرائحة البان، وخشب غلاظ تنحت [1]. وقيل: إنه وجد فيه عود البخور.

ويجتمع هذان النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة. وينقسمان على ألوانهما قريبا من مرحلة، ثم يختلطان بعد ذلك، وبينهما أمواج كبار عظيمة تتلاطم.

قال: وأخبرنى من أخذ من النيل الأبيض وصبه فى النيل الأخضر فبقى فيه مثل اللبن قبل أن يختلطا، وبين هذين النهرين جزيرة، ولا يعرف لهذين نهاية.

والأربعة الأنهار الباقية أيضا تأتى من القبلة مما يلى الشرق فى وقت واحد، ولا يعرف لها نهاية، وهى دون النهرين الأبيض والأخضر فى العرض وكثرة الخلجان والجزائر، وجميع الأربعة تنصب فى الأخضر، وكذلك الأول الذى تقدم ذكره، ثم تجتمع مع الأبيض، والجميع عامرة مسكونة مسلوكة بالسفن، وأحد هذه الأربعة يأتى من بلاد الحبشة.

قال: ولقد أكثرت السؤال عنها وكشفتها من قوم عن قوم، فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية هذه الأنهار، والذى انتهى إليه علم من عرفنى عن آخرين إلى خراب، وأنه يأتى فى وقت الزيادة فى هذه الأنهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك، ويدل على عمارة بعد الخراب، فأما الزيادة فمجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتى من ذاتها، والذى على ذلك النهر الذى يجف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة. هذا كله كلام مؤرخ النوبة.

وفى (الخطط) 1: أقام [2] حجاج مصر والمغرب زيادة على مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا بركوب النيل من الفسطاط إلى قوص، ثم

---

(١) ليست فى ب.

(٢) ليست فى ب، جـ.

---

1 (١/ ٢٠٣).

يمرون من صحراء عيذاب، ثم يركبون البحر المالح إلى جدة، وذلك فى بضع وخمسين وأربعمائة إلى بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى بمصر فى أيام المستنصر الفاطمى، فانقطع الحج فى البر (إلى أن كسا الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الكعبة وعمل لها مفتاحا، ثم أخرج قافلة الحاج فى البر، وذلك بعد ستين وستمائة، فاستمر سلوك [1] الحاج فى البر) [2].

وفيها مدينة أرجنوس من عمل البهنسا، بها كنيسة فيها بئر يقال لها: بئر سيوس [3] صغيرة [4]، لها عيد فى الخامس والعشرين من بشنس، يفور بها الماء عند مضى ست ساعات من النهار حتى يطف، ثم يعود إلى ما كانت عليه، ويستدل النصارى على زيادة النيل فى كل سنة بقدر ما علا الماء.

وفيها مدينة أنصنا، كان بها مقياس النيل من بناء دلوكه أحد من ملك مصر، وكان كالطيلسان، وفى دائره عمد على عدة أيام السنة الشمسية، كلها من الصوان الأحمر، ومسافة ما بين كل عمودين مقدار خطوة إنسان، وكان ماء النيل يدخل إليه من فوهة عند زيادة الماء، فإذا بلغ الحد الذى كان إذ ذاك يحصل منه رى مصر جلس الملك عند ذلك فى شرف له، وصعد قوم من خواصه إلى رءوس الأعمدة المذكورة، فيتعادون عليها ما بين ذاهب وآت، ويتساقطون من الأعمدة إلى الملعب 1 وهو ممتلئ بالماء.

قال أبو عبيد البكرى 2: ويقال إن التمساح لا يضر بساحل أنصنا لطلاسم

---

(١) فى الأصل: ملوك.
(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٣) فى ب، جـ: سوس.
(٤) ليست فى ب، جـ.

1 ذكر المقريزى أن هذا الملعب هو أصل مقياس النيل. انظر الخطط (١/ ٢٠٣).
2 هو أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى الأندلسى، مؤلف جغرافى وعالم بالأدب، وله معرفة بالنبات، نسبته الى بكر بن وائل، ولد فى شلطيش غربى إشبيلية ثم انتقل إلى قرطبة، وبها مات سنه ٤٨٧ هـ.

وضعت هناك، وإنه إذا حاذى برها انقلب على ظهره حتى يجاوزها، وفيها يقال إنه كان بالجيزة أحجار ورخام قد صورت فيها التماسيح، فكانت لا تظهر فيما يلى البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوا وسفلا.

قال الكندى فى فضائل مصر: لو قايسنا بأنهارالفيوم أنهار البصرة ودمشق لكان لها بذلك الفضل، وليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير كورة الفيوم، وليس فى الدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا.

*** ذكر قصة دفن يوسف عليه السلام فى النيل:**

أخرج ابن عبدالحكم فى فتوح مصر 1 عن سماك بن حرب قال: دفن يوسف عليه السلام فى أحد [1] جانبى النيل، فأخصب الجانب الذى كان فيه، وأجدب الجانب الآخر، فلما رأوا ذلك جمعوا عظامه فحملوها فى صندوق من حديد، وجعلوا فيه سلسلة، وأقاموا عمودا على شاطئ النيل، وجعلوا فى أصله سكة من حديد، وجعلوا السلسلة فى السكة، وألقوا الصندوق فى وسط النيل، فأخصب الجانبان جميعا.

وأخرج ابن عبدالحكم 2 عن ابن [2] لهيعة عمن حدثه قال: قبر يوسف عليه السلام بمصر فأقام بها نحوا من ثلاثمائة سنة، ثم حمل إلى بيت المقدس.

وأخرج الحاكم فى المستدرك 3 وصححه عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « **إن موسى عليه السلام حين أراد أن يسير ببنى إسرائيل ضل**

---

(١) فى النسخ الخطية: آخر. وما أثبتناه من فتوح مصر، وهو أوفق بالسياق.

(٢) فى الأصل، ب: ابن أبى. وفى جـ: أبى. والصواب ما أثبتناه من فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ٨١. وانظر تهذيب التهذيب (٥/ ٣٧٣).

---

1 ص ٧٥.

2 فتوح مصر، ص ٨١.

3 المستدرك على الصحيحين (٢/ ٤٣٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

عنه الطريق، فقال لبنى إسرائيل: ما هذا ؟ فقالوا [1] له علماء بنى إسرائيل: إن يوسف عليه السلام حين حضره الموت أخذ علينا موثقا من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا. فقال موسى: أيكم يدرى أين قبره ؟ فقالوا: ما يعلم أحد مكان قبره إلا عجوز لبنى إسرائيل. فأرسل إليها موسى فقال: دلينا على قبر يوسف، قالت: لا والله حتى تعطينى [2] حكمى، قال: وما حكمك ؟ قالت: أن أكون معك فى الجنة. فكأنه كره ذلك، فقالوا له: أعطها حكمها، فأعطاها حكمها. فانطلقت بهم إلى بحيرة مستنقعة ماء، فقالت لهم: تغيبوا عنها الماء، ففعلوا. قالت: احفروا، فحفروا، فاستخرجوا عظام يوسف، فلما نقلوه من الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار ».

قال المقريزى فى (الخطط) : فى سنة (سبع وخمسين) [3] وخمسمائة ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيل الحائط الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السلام إلا حينئذ عند نقصان الماء فى قاع المقياس، فإن الرمل انكشف عنه وظهر للناس، وأكثر الناس ما علموا ما هو.

ذكر المسبحى فى تاريخه: أن فى زمن فرعون جاء الكوشانيون وهم الحبش إلى أرض مصر، وأحرقوا بلادها وقطعوا الماء عنها، فوجه إليهم موسى عليه السلام وهو إذ ذاك شاب فى تربيته ومعه عشرة آلاف فارس من بنى إسرائيل وعشرة آلاف من المصريين [4] ، فقاتل الحبشة وظفر بهم، وأقام موسى عليه السلام إلى وقت صعود النيل وعرف أحواله، وبنى سدا عظيما بالحجر والكلس يحفظ الماء عند زيادته، وعاد فى السفن إلى مصر، فخافه الملك وجمع خاصته، ثم بعد ذلك قتل القبطى وخرج من مصر إلى أرض مدين.

وذكر بعض المؤرخين: أنه فى خلافة المستنصر الفاطمى نقص النيل كثيرا،

---

(١) كذا بالنسخ الخطية. ولعله سبق قلم من النساخ، فقد جاء فى المستدرك: فقال. أو هو على لغة من يقول: أكلونى البراغيث.

(٢) فى الأصل: توطينى.

(٣) فى ب، جـ: خمس وسبعين.

(٤) فى الأصل، ب: البصريين.

فأرسل بطرك النصارى إلى ملك الحبشة بهدية، فتلقاه ملك الحبشة وأكرمه وسجد بين يديه، وسأله عن سبب قدومه، فعرفه أن نيل مصر نقص وأضر بالبلاد وأهلها، فأمر ملك الحبشة بفتح السد الذى يجرى منه الماء إلى الديار المصرية لأجل قدوم البطرك. وأجرى الله النيل من تلك السنة، وزاد فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع وتكامل، ورويت البلاد.

*** ذكر إلقاء موسى عليه السلام فى النيل حين ولد:**

أخرج النسائى فى السنن الكبرى 1، وابن أبى عمر الصدفى، وأبو يعلى الموصلى2 فى مسنديهما، وابن جرير 3، وابن المنذر، (وابن أبى حاتم) [1]، وابن مردويه فى تفاسيرهم، من طريق أصبغ بن زيد الوراق الجهنى، عن القاسم بن أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا. فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه، وقد كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان الله وعد إبراهيم. قال فرعون: فكيف ترون ؟ قال: فأتمروا وأجمعوا أمرهم على [2] أن نبعث رجالا معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل، ولا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يذبحون قالوا: يوشك أن يفنوا بنى إسرائيل ويصيرون إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر فيقل نباتهم، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن يستحيون

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) فى الأصل، ب: قال. والمثبت موافق لما فى السنن الكبرى للنسائى.

1 (٦/ ٣٩٦).

2 مسند أبى يعلى (٥/ ١٠).

3 تفسير الطبرى (١/ ٢٧٢)، (١٦/ ١٦٤).

منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن تغنوا بمن يقتلون فتحتاجوا إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة. فلما كان من العام القابل حملت بموسى، فوقع فى قلبها الهم والحزن، فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. وأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم، فلما ولدت فعلت به ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى ؟! لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه بيدى إلى حيتان البحر ودوابه. فانتهى الماء به حتى (ألقى به عند) [1] فرضة 1 مستقر جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فحملنه كهيئته [2] حتى دفعنه إلى امرأة فرعون، فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقى عليها منه محبة لم يلق منها أحد من البشر قط".

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن السدى قال: لما وضعت أم موسى موسى أرضعته، ثم دعت له نجارا فجعلت له تابوتا، وجعلت مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته فى اليم، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين أحجار عند بيت فرعون، فخرجن [3] جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية.

وقال عبدالرزاق فى تفسيره: أنبأنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال: قذف فى نفسها 2.

---

(١) فى ب، جـ: أرقى به إلى.

(٢) ليست فى جـ.

(٣) كذا وردت بالنون فى النسخ الخطية، وهى على لغة من يقول: أكلونى البراغيث.

---

1 الفرضة من النهر: مشرب الماء منه.

2 انظر: تفسير الطبرى (٢٠/ ٢٩) .

وأخرج ابن أبى حاتم من وجه آخر عن قتادة فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال [1]: قذف فى قلبها، وليس بوحى نبوة 1.

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قال: يقول: ألهمناها الذى صنعت بموسى 2.

وأخرج عن أبى عبدالرحمن الحبلى قال: إن الله أوحى إلى أم موسى حين وضعته أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، فلما خافت عليه جعلته فى التابوت، وجعلت المفتاح مع التابوت وطرحته فى البحر، فخرجت امرأة فرعون إلى البحر وابنة لفرعون برصاء، فرأوا سوادا فى البحر، (فأخرج التابوت إليهم) [2]، فبادرت ابنة فرعون وهى برصاء إلى التابوت ففتحته، فوجدت موسى فى التابوت فأخذته فبرئت من برصها 3.

وأخرج عن السدى فى قوله: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، قال: هو البحر، وهو النيل 4.

وأخرج عن محمد بن إسحاق قال: لما ولدت موسى أمه أرضعته، ثم جعلته فى تابوت صغير ومهدت له فيه، ثم عمدت به إلى النيل فقذفته فيه، فأصبح فرعون فى مجلس له يجلسه على شفير النيل كل غداة، فبينما هو جالس إذ مر النيل بالتابوت يقذف، وامرأته جالسة إلى جنبه فقالت: إن هذا الشىء فى البحر فأتونى به، فخرج أعوانه حتى جاءوا به، وكانت أم موسى ترفع هل سمع له بذكر، حتى أتى الخبر أن فرعون قد أصاب الغداة صبيا فى النيل فى تابوت فعرفت القصة 5.

---

(١) فى ب، جـ: لما.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: فخرجت امرأة فرعون.

---

1 المرجع السابق، المكان نفسه.

2 انظر: تفسر ابن كثير (٢/ ١١٦) .

3 أورده الطبرى فى تفسيره (٢٠/ ٣٢) .

4 أورده الطبرى فى تفسيره (٢٠/ ٣٠).

5 أورد هذا الخبر الطبرى فى تفسيره (٢٠/ ٣٢) .

وأخرج ابن المنذر فى تفسيره عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ قال عن بعد. قال: وقال غير مجاهد: هى على ساحل البحر وموسى يجرى به النيل، وهو فى تابوت مقير ظهره وبطنه مقفل عليه، وهى تنظر إليه نظرة وإلى الناس نظرة 1.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا عمرو بن حماد [1]، أنبأنا أسباط، عن السدى قال: إنما سمى موسى لأنهم وجدوه فى ماء وشجر، والماء بالقبطية: موا. والشجر: سا 2.

*** ذكر آية وقعت على عهد موسى عليه السلام**

قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ 3:

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبى، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا شبل، عن عبدالله بن كثير [2] عن مجاهد قال: سال النيل دما، فكان الإسرائيلى يستقى ماء طيبا، ويستقى الفرعونى دما، ويشتركان فى إناء واحد، فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء طيبا، وما يلى الفرعونى دما [3] 4.

*** ذكر تجسير "عوج" على [4] النيل:**

قال ابن جريج فى تفسيره: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "كانت عصا موسى عشرة

---

(١) فى ب، جـ: مجاهد.

(٢) فى النسخ الخطية: عبد الله كثير. وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه من تهذيب الكمال (١٥/ ٤٦٩) .

(٣) فى الأصل: ماء.

(٤) ليست فى ب، جـ.

---

1 أورد هذا الخبر الطبرى فى تفسيره (٢٠/ ٣٩) .

2 انظر: تفسير الطبرى (١/ ٢٨٠) .

3 سورة الأعراف، الآية ١٣٣.

4 انظر: تفسير الطبرى (٩/ ٣٨) .

obeikandl.com

أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب عوج فقتله، فكان جسرا لأهل النيل سنة" 1.

وقال أيضا: حدثنا ابن بشار، (حدثنا مؤمل) [1] حدثنا سفيان، عن أبى إسحاق، عن نوف [2] قال: كان طول سرير عوج الذى قتله موسى ثمانمائة ذراع وعرضه أربعمائة ذراع، وكانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته حين وثب إليه عشرة أذرع، وطول موسى عشرة أذرع، فضربه فأصاب كعبه، فخر على نيل مصر، فجسره للناس عاما يمرون على صلبه وأضلاعه. أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان 2.

قال أبو نعيم فى الحلية 3: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أحمد بن هارون، حدثنا روح، حدثنا أبو سعيد الكندى، حدثنا أبو بكر بن عياش قال: اجتمع وهب بن منبه وجماعة فقال لهم وهب: أى أمر الله أسرع ؟ قال بعضهم: عرش بلقيس حتى أتى به سليمان. فقال وهب: أسرع أمر الله أن يونس بن متى كان فى جوف السفينة فبعث الله إليه حوتا من نيل مصر، فما كان أقرب ـ أو ما عدا ـ إلا صار من حرفها فى جوفه.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، أنبأنا الوليد، حدثنا سعيد بن بشير، عن قتادة قال: التقمه الحوت فجرى به فى بحر الروم، ثم النيل ثم بحر فارس، ثم فى دجلة.

قال القاضى أبو العباس أحمد بن مطرف فى كتابه المسمى (بالترتيب): إن قال قائل: ما بال أرض مصر لا ترفع ولا تعلو على ما هى عليه، ونيلها فى كل سنة يجرى

---

(١) ما بين القوسين مثبت من ب، جـ. ولكن بلفظ: حدثنا مرسل. والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (٦/ ١٨٥).

(٢) فى الأصل: نور. وهو تصحيف، والصواب ما أثبتناه. انظر تفسير الطبرى (٦/ ١٨٥).

---

1 أخرجه الطبرى بهذا الإسناد فى تفسيره (٦/ ١٨٥).

2 شعب الإيمان (٧/ ٤٠٤).

3 حلية الأولياء (٤/ ٥٠).

إليها تراب البلدان التى يمر بها ويكسوها كلها ترابا غريبا على طول الزمان، فكان ينبغى أن يتكاثف ذلك ويركب بعضه بعضا، ويعلو حتى تصير أرضها كالجبل العظيم منه لتواتره عليها مدى الدهر؟

فالجواب: أن الحب والتبن والتمر والخشب والكلأ والعشب ونحو ذلك إنما يتولد من الماء والتراب، ألا ترى أن الشجرة تغرس أول أمرها عودا رقيقا فى الأرض، ثم يغلظ أصلها وتطول ويكثر ورقها، وذلك بقدر ما تأخذ من الماء والتراب فى خشبها وورقها، وكذلك التمر والعشب وسائر النبات.

ونقل غير واحد عن كتاب الأدوية المفردة للشريف أبى عبد الله الأندلسى أن الدابة إذا أصابها المغل1 يكتب على أربع قوائمها هذه الكلمات الأربع: سيحون، جيحون، النيل، الفرات. كيف ما كتبت فإنها تبرأ، وقد جرب فوجد صحيحا.

رأيت فى كتاب (نزهة المذاكرة وأنس المحاضرة)، وهو قديم تاريخ كتابته قبل الخمسمائة، قال: ورد على الخليفة المنصور كتاب (صاحب مصر) يخبره عن نقصان النيل فوقع فى كتابه: طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد.

قال ابن الجوزى فى تاريخه: فى سنة ثمان وسبعين ومائتين وردت الأخبار أن نيل مصر غار فلم يبق منه شىء، قال: وهذا شىء لم يعهد مثله ولا بلغنا فى الأخبار السابقة، فغلت الأسعار فى مصر بسبب ذلك. وفى سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة قصر النيل فوقع الغلاء. ذكره المقريزى فى كتاب إغاثة الأمة.

قال: وفى سنة اثنتين وخمسين انتهت زيادة النيل إلى خمسة عشر ذراعا (وأربع أصابع فقط، فوقع الغلاء واستمر تسع سنين متتابعة. وفى سنة ثلاث وخمسين لم يبلغ أيضا سوى خمسة عشر ذراعا) [1] وأصابع، وانحط سريعا. وفى سنة أربع بلغ

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

1 المغل: وجع البطن من تراب. يقال: مغلت الدابة تمغل مغلا فهى مغلة، إذا أكلت التراب مع البقل، فأخذها لذلك وجع فى بطنها.

ستة عشر ذراعا وأصابع، وفى سنة خمس بلغ أربعة عشر ذراعا وأصابع، وفى سنة ست وخمسين لم يبلغ سوى اثنى عشر ذراعا وأصابع، ولم يقع مثل ذلك فى الملة الإسلامية، واستمر الغلاء إلى سنة ستين، فلما دخلت سنة إحدى وستين حصل الوفاء التام وأخصبت الأرض وانحلت الأسعار، وفى سنة سبع وثمانين قصر النيل فوقع الغلاء، وفى سنة خمس وتسعين بلغ ستة عشرة ذراعا وأصابع، (وفى سنة سبع[1] وتسعين بلغ ثلاثة عشر ذراعا وأصابع، واستسقى الناس مرتين. وفى ثمان وتسعين بلغ أربعة عشر ذراعا وأصابع) [2]، وفى سنة تسع وتسعين كسر فى خامس عشر توت والماء فى خمسة عشر ذراعا فنقص وانحط فاشتد الأمر.

قال المقريزى فى (الخطط): فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة نقص ماء النيل ثم زاد بعد أوانه بأربعة أشهر، وفى سنة أربع وأربعين قصر النيل فوقع الغلاء، وكذا فى سنة سبع.

قال الذهبى وغيره: وفى سنة ستين وأربعمائة وما بعدها نقص النيل فكان الغلاء العظيم بمصر الذى لم يسمع به فى الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام، واشتد القحط والوباء سبع سنين، بحيث أكلت الميتات [3] والجيف وبنو آدم، وبلغ الأردب القمح مائة دينار، ثم عدم أصلا حتى حكى صاحب المرآة: أن امرأة خرجت من القاهرة ومعها عقد جوهر، وقالت: من يتملكه بمد قمح ؟ فلم يلتفت إليها أحد. وبيع الكلب بخمسة دنانير، والهر بثلاثة دنانير، ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير.

وقال بعض الشعراء يهنئ الخليفة القائم بأمر الله ببغداد:

---

(١) فى ب، ج: تسع. ولعله تصحيف، إذ التسلسل الزمنى يقتضى أن تكون سبعا.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٣) فى الأصل: الحيتان.

وقد علم المصرى أن جنوده سنو[٢] يوسف فيها وطاعون عمواس1
أقامت[١] به حتى استراب بنفسه وأوجس منها خيفة أى إيجاس

وفى سنة سبع عشرة وخمسمائة بلغ ستة عشر ذراعا سواء بلا زيادة عليها. وفى سنة ثمانى عشرة أوفى النيل بعد النيروز بتسعة أيام، وزاد على الستة عشر ذراعا أحد عشر أصبعا لا غير، وغلا السعر. وفى سنة ست وسبعين وخمسمائة بلغت الزيادة ستة عشر ذراعا وثلثى ذراع. وفى سنة سبع احترق النيل حتى صار يخاض، وربى جزائر رملية[٣] حتى خيف منها على المقياس أن ينقلص[٤] عنه الماء ويحتاج إلى عمل غيره. وفى سنة تسع وسبعين بلغ النيل ثلاث عشرة أصبعا من تسعة عشر ذراعا، فأضر ذلك بالجدران، وغرقت البساتين، وفاضت الآبار، وانقطعت التراع وكثر كما حصل فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وفى سنة سبع وثمانين عظمت زيادة النيل وغرقت النواحى وكثر رخاء الأسعار بمصر. وفى سنة ست وتسعين وخمسمائة قال الذهبى فى (العبر): كسر النيل من ثلاثة عشر ذراعا إلا ثلاثة أصابع، فاشتد الغلاء وعدمت الأقوات. وفى سنة سبع وتسعين قال صاحب المرآة: كان هبوط النيل، ولم يعهد ذلك فى الإسلام إلا مرة واحدة فى دولة الفاطميين، ولم يبق منه إلا الشىء اليسير فاشتد الغلاء والوباء وهرب الناس إلى الأقطار، وكان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأكل من بنى آدم ما لا يحصى، ومات ثلاثة أرباع أهل الإقليم.

---

(٢) فى ب، جـ: أقام.
(١) ليست فى ب، جـ.
(٣) فى الأصل: رميلة.
(٤) فى ب، جـ: يتقيس.

---

1 طاعون عمواس: أول طاعون كان فى الإسلام، وقع أيام الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ثمانى عشرة من الهجرة، وكان ذلك بالشام، وفيه توفى أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ ابن جبل وامرأتاه وابنه، رضى الله عنهم.

قال المقريزى: تمادى الحال ثلاث سنين متوالية لا يمد النيل فيها إلا مدا يسيرا، حتى عدمت الأقوات وهلك أهل مصر جوعا، وقال الناس سنة سبع: افترست الناس [1] أسباب الحياة. وكتب ضياء الدين بن الأثير يخبر السلطان الملك الأفضل إلى ديوان الخلافة كتابا يقول فيه: فمذ ولى العبد أمر دمشق أولا وأمر مصر ثانيا لم يرد يدا عما سألته، ولا نفسا (عما تأملته، وكان الناس معه فى أمن قلوب ولين جنوب كأنهم ساكنو) [2] الجنة التى لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب، ولما وليهم الخصم ـ يعنى الملك العادل ـ اجتث أحوالهم من أصلها، وأجحف بالبلاد وأهلها فجعل السيئة موضع الحسنة، والخوف مكان الأمنة، فلما اطلع الله على نيته عاقبه وعاقب الناس بجرمه، وكان كعاقر الناقة الذى أصيبت ثمود بإثمه، ولقد أصبحت سنيه كسنى يوسف برما [3] وجدبا، وليس بمنكر لمن كانت أيامه دهماء أن تكون أعوامه [4] شهباء، ويرجو العبد أن تكون ولايته بعده ولاية بر وألطاف، وأن يرزق الله الناس أعواما سمانا يأكلن ما تقدم من العجاف، وأن يكون ممن إذا أصاب الله به قوما إذا هم يستبشرون، وأن يجعل عامه هو العام الذى يغاث فيه الناس وفيه يعصرون.

وقال العماد الكاتب 1: فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة [5] اشتد الغلاء، وامتد البلاء، وتحدثت المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهلك القوى فكيف الضعيف ؟!

---

(١) مثبتة من جـ.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، ج.

(٣) ليست فى ب، ج، ويراجع الكامل لابن الأثير فلعلها: برما.

(٤) فى ب: أعوانه. وفى جـ: أعياده.

(٥) فى ب، جـ: وتسعمائة. وهو خطأ، فالسيوطى توفى سنة ٩١١هـ.

---

1 هو أبو عبد الله محمد بن محمد صفى الدين بن نفيس الدين حامد بن أله الأصبهانى، المعروف بعماد الدين الكاتب، مؤرخ، عالم بالأدب، من أكابر الكتاب، ولد فى أصبهان، وقدم بغداد صغيرا، فتأدب وتفقه، ثم رحل إلى دمشق وظل مقربا لصلاح الدين، ولزم مدرسته المعروفة بالعمادية. توفى سنة ٥٩٧ هـ.

ونحف السمين فكيف العجيف ؟! وخرج الناس حذارا من الموت من الديار، وتفرقت فرق مصر فى الأمصار، ولقد رأيت الأرامل على الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم.

وفى سنة تسع وتسعين زاد النيل زيادة كثيرة ورخصت الأسعار.

وفى سنة سبع وعشرين وستمائة قال ابن المتوج: بلغ النيل ستة عشر ذراعا وثلاثة أصابع فقط بعد توقف عظيم، ووصل القمح خمسة دنانير للإردب.

وذكر المقريزى: أنه بلغ ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا، وأن قاع المقياس بلغ ذراعين. وفى سنة تسع وعشرين وصل النيل ثمانية عشر ذراعا وستة أصابع، وتأخر نزوله حتى خاف الناس من عدم نزوله فغلا السعر، ثم نزل فانحط السعر. وفى سنة أربع وستين زاد زيادة عظيمة.

وقال ناصر الدين الحسن بن شاور بن النقيب 1 فى ذلك:

طبق النيل أرض مصر فلولا السـ ـفن فيه لما تأتى العبور
فهو عند المثال لوح وقصد سط ـر فيه من الجسور سطور

قال اليغمورى: وأنشدنى فى ذلك تاج الدين المذكور أيضا لنفسه فى منتصف ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة، وقد بلغت زيادة النيل أربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذارعا، وقد دخل إلى دور الجزيرة وقطع الطرق، وقد دعاه إلى دار فى الجزيرة الأديب سراج الدين عمر بن محمد الوراق، فباتوا بها وهم خائفون من الماء:

هجم النيل فى البيوت على النا س وثنى فيهم بقطع الطريق
نقب الدور والبساتين لما جاء يسعى من كل فج عميق

---

1 هو ناصر الدين، الحسن بن شاور بن طرخان بن الحسن بن النقيب الكنانى، المعروف بالنفيسى، شاعر، من أفاضل مصر. توفى سنة ٦٨٧ هـ.

قال اليغمورى: وأنشدنى فى ذلك تاج الدين أبو نصر مظفر بن محاسن بن على بن نصر الله الدمشقى لنفسه بديها:

قد دعانى خلى إلى الروضة الغنـ ـاء للهو وارتشاف الرحيق
قلت: مهد عذرى ودعنى فإنى عاجز عن زيارة يا صديقى
هجم النيل فى البيوت على النا س وثنى فيهم بقطع الطريق

وفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة وصل النيل إلى خمسة عشر ذراعا وثلث ذراع، فلم يوف وغلت الأسعار، وفى سنة أربع وتسعين وستمائة أوفى النيل فى السادس من أيام النسىء وكسر، وبلغت زيادته ستة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعا، ثم هبط ولم يثبت وحصل بديار مصر غلاء شديد، ووصل الإردب القمح ثمانية مثاقيل ذهب ونصف مثقال، وذلك مائة وسبعون درهما نقرة 1.

وقال الشهاب البزاعى فى ذلك من قصيدة طويلة:

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سجام 2
ومد به من الأموات سيل لنقص عبابه منه تمام
عروا مما عراهم فى شعاب ال أسى وجرت مدامعهم فعاموا
قضى بعض على بعض من الحز ن واستولت على الموتى الهوام
فلا دار يقر بها قرار ولاسفر يجر له زمام
ولما أن نأت عنهم جميع الـ ـبلاد بكتهم [1] حتى الشآم
وماتت خيلهم حتى المواشى وأخلى السرج واجتنب اللجام

(١) فى جـ: بكتهم مصر.

1 النقرة: القطعة المذابة من الذهب أو الفضة.
2 سجام: أى: غزيرة.

وباد الزارعون وخلفوا كـ ـل ما زرعوا وفاتهم الصرام 1
وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام
وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام
ودارت بين أصحاب الملاهى هموم أخرستهم لا مدام 2
ولم تجد الجدود ولا الموالى وأحجم عن سيادته عصام
ترى الفرسان تحسبهم رفاة من الأجداث قبل البعث قاموا
تفطر منهم الأكباد جوعا كأن الفطر عندهم صيام
وأما الأغنياء فقد أباحوا حمى الأموال وانخرم النظام
وأخلى السقم فيهم كل كيس تولى ختمه سام وحام
وجادوا بعد بخل واحتكار ولولا الخوف ما جاد اللئام
تساوى العبد والمملوك والحـ ـر والبخلاء منهم والكرام
وأقوت 3 دورهم من كل قوت وشتت شملهم [1] حتى الرخام
فلو وصف الطبيب لهم شرابا لما وجد الإناء ولا القرام [2]
ولو قال: اطعموا لحما ولو كا ن من جدى ونى 4 منه العظام
لما وجدوا من الأغنام إلا خيالات تسندها العظام
ولو طلب الدجاج (لعز جنس) [3] الطيـ ـور جميعها حتى النعام

---

(١) فى ب، جـ: شملها.
(٢) فى ب، جـ: القوام.
(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: أمير جيش.

---

1 الصرام: جنى الثمار.
2 مدام: أى: خمر.
3 أقوت: خلت.
4 ونى: ضعف وأعيا.

فهم أبدا سهارى بل سكارى بكأس همومهم وهم نيام
ولولا أن مصر كنانة اللـ ـه فى الدنيا وأسهمها العوام
لما صبرت على جور[1] وقحط وليس بها لغيرهما اهتضام
عسى الرحمن أن يرضى عليهم ويجرى نيلهم فهو السلام

ورحل الشهاب البزاعى فى هذه الكائنة إلى عدن، ثم عاد وأنشأ مقامة فى ذلك وهى هذه:

"أخبرنى بعض الإخوان، الخائف من صروف الحدثان، المتألم من نوائب الزمان، المعروف بين التجار بتردد الأسفار، وركوب الأهوال والأوعار، من الأنجاد والأغوار، وطئ مشقق مشقات الفيافى والقفار، وشق تيار زواخر البحار، قال: خرجت من مصر عام القحط والوبا، صارما عنان عزيمتى عنها هربا، مستلقيا خشونة صحبة أعراب الصحرا، متجرعا بكف المكابدة أكواب[2] نكد الزمن[3]، طالبا بلاد اليمن، قاصدا من سواحلها مدينة عدن، قال: فلما وصلت إليها، ووقع بصرى عليها، ألفيتها مشرقة الظواهر شاهقة الطوارم 1، مشرفة المناظر، قائمة الأسواق، على ساق الإنفاق، مجلوبة إليها الأرزاق، من سائر الآفاق، بيد أنى وجدت المقام بها شظفا، والنفقة مع تغييرها سرفا، وبنيان أمل المقيم بها على شفا. قال: فلما حللت بساحتها، ومزجت كأس نعيمها براحتها، وحليت بالخبرة أسطر معانيها، وجليت بالتجربة سكان مغانيها، لم أجد بدا أن أتخذ من أهلها جيرانا، ومن التجار[4] الواردين إليها أصحابا وإخوانا، وعزمت أن أجعلها لى مسكنا، وأريح

(١) فى جـ: جوع.
(٢) ليست فى ب، جـ.
(٣) فى الأصل، ب: إلزاما.
(٤) ليست فى جـ.

1 الطوارم: جمع طارمة، وهو بيت من خشب كالقبة.

راحلة بدنى (من الضرب)[1] فى الأرض بالكد والعنا، ثم وقع الاختيار بعد الاختبار، على مساءلة بعض من صحبت من التجار، الواردين إليها على سبيل المقام، والتردد بأسفاره إلى بيت الله الحرام، وكان ممن ملت بالصحبة إليه، وجعلت كل كلها عليه، عن فصول ربيعها والخريف، وحلول شتائها والمصيف، وما يختص كل فصل فيها من الفواكه والخيرات، وما بناديها وبأودية حواضرها ونواديها من المتنزهات، وكان ممن يوصف بجوب البلاد، ونعت الأغوار منها والأنجاد، وممن طاف[2] أقاصى الأمصار، ونقل عن ثقات قطانها نوادر الأخبار، ومسح بساحتها كرة المشارق والمغارب، وصوب وصعد فى أودية الديانات والمذاهب، ورصد من جميع الآفاق بجمع الأوفاق نيرات الكواكب، وحكم على كل إقليم تباشر طالعه والمغارب.

قال: فلما سمع فحوى كلامى، وتيقن نقض إبرام عزمى عن سقامى [3] ، قال: سألتنى عن شبكة حصلت فيها على حيرة الحيتان، وورطة غصت فى وحلها إلى الآذان، لكن إن يسر الله الخلاص منها ولو بعد حين، لأخصنك من نبئها [4] بالخبر اليقين.

قال الراوى: فلما قضيت على العادة حضرتى [5] التجارة، وقرنت بين عمرتى ربحها والخسارة، وتجهزت للسفر فى بعض جهازات التجار، وتبضعت ما اخترته من أنواع البر وأصناف البهار، ثم إنى ودعته ووعدنى [6] ، وسألنى كتمان ما استودعنى، هذا وهو متأسف على ما به من الآلام، نادم على ما عزا [7] عليه بعدى

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.
(٢) فى الأصل: طاب.
(٣) فى جـ: مقامى.
(٤) فى الأصل، جـ: نباتها.
(٥) فى جـ:حرتى.
(٦) فى ب: وودعنى. وفى جـ: وأودعنى.
(٧) فى ب، جـ: غرم.

من المقام. قال: فلما وصلنا عيذاب ورد علينا بعد المشيب عصر الشباب، وحلت لقدومنا حبى 1 الترحاب، من تلك الرحاب، وطلعت شموس سعودنا بعد أفولها، وأورقت غروس راحة نفوسنا بعد ذبولها، واعتذر البحر إلينا بعد هيجانه وانزعاجه، وسكن ما كان من زعزع رياحه وتلاطم أمواجه.

ولما حل مركبنا محلى بجاوى فى أمان الله راسى[1]
وفزنا بالسلامة بعد هول الـ ـبحار ووضع رأس بعد راسى
تبينت البطون ومن مراس الـ ـخروج أو الدخول من المراسى

وأصلته من كتاب بعد كتاب، فى الدوائح [2] المدبرة والجلاب 2، واصفا له ما أجد من [3] الأشواق، مبتهلا إلى الله تبارك وتعالى أن يسرنا بعد الفراق بالتلاق، وكتبت إليه أبياتا أصف فيها بعض محاسن من صحبته فى السفينة، من (اشتمالها بنا على) [4] الوقار والسكينة، وما مر لنا فيها من الأوقات، الخالية من الآفات، الحالية بالأمن والمسرات:

لله در عصابة رافقتهم فى اليم من عدن إلى عيذاب
تجرى بنا فلك السلامة دائما كالأيم بين [5] جزائر وشعاب
تحدو بها ريح الصبا فتمر من [6] طرب على الدماء مر سحاب

---

(١) فى الأصل: ربى.
(٢) فى الأصل: الدوانيج. والدوائح: جمع دائحة، وهى الشجرة العظيمة.
(٣) فى الأصل: بين.
(٤) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: حاز.
(٥) فى ب، جـ: من.
(٦) فى ب، جـ: فى.

---

1 حبى: جمع حبوة، بتثليث الحاء المهملة، ما يحتبى به من ثوب وغيره. يقال: احتبى الرجل بالثوب، إذا أداره على ساقيه وظهره وهو جالس جلسة الاحتباء.
2 الجلاب: ماء الورد.

فكأننا فيه خيال سائر ... من عاشق كلف إلى الأحباب

وكأننى فيهم حبيب زائر ... أو غائب متلذذ بإياب

ما منهم إلا كريم فاضل ... حسن الفكاهة طاهر الأنساب

حال بكل فضيلة خال من الـ ... ـخيلاء والفحشاء والإعجاب

فابن [1] الكويك له أعز مكانة ... فى كل مكرمة ولست بحابى [2]

أعنى أمين الدين فهو أحق من ... تثنى عليه ألسن الآداب

وكذا جمال الدين حاز فضائلا ... ومراتبا عزت على الطلاب

أعنى ابن صقر واسمه بين الورى ... يغنيه تعظيما من الألقاب

يهوى المعالى والمحامد والثنا ... فنداه 1 مبذول بغير حجاب

وبقية الأصحاب كل منهم ... نال الذى يرجو بغير حساب

ما شاهدت عينى سواهم داخلا ... فى حسن عشرته مع الأصحاب

صرفت صرف الهم من أوصافهم ... وصفت سرائرهم من الأوصاب [3]

(وغدا المزاج عليهم فسقاهم) [4] ... كأس الرضا ممزوجة بتصابى

ولو اطلعت عليهم لوجدتهم ... عند الصلاة أئمة المحراب

لا زال نجم سعودهم فى أوجه ... تجرى مدى الأعوام والأحقاب

ما افتر ثغر البرق فى وجه الدجى ... وانهل وبل من جفون سحاب

---

(١) فى الأصل: فبابن. وفى ب: فباين.

(٢) فى ب، جـ: محابى.

(٣) فى الأصل: الأوصاف. وهو مناف للقافية. والأوصاب: جمع وصب، وهو المرض.

(٤) ورد هذا الشطر فى الأصل هكذا: فسقاهم وغدا المزاج عليهم.

---

1 فنداه: أى: جوده وسخاؤه.

obeikandl.com

ثم عزمت بعد ذلك على طى البيد، والهبوط إلى ما قرب أو بعد من بلاد الصعيد، واستصحبت رفقة أعراب قد وضعت على الفساد قواعدها، وتشعبت آراؤها ومقاصدها، فسلكوا بى طريق صحرائهم أسودها وأساودها، مستعرة بالسموم غيطانها وفدافدها 1، ممزوجة بحميم الجحيم مواردها، فتلوت عند ذلك ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ 2، ثم بعد العموم من الهموم والخصوص، من الله تبارك وتعالى بوصولى إلى المدينة قوص، فوافيت البلاد عقب الحصاد قرى قد قدر فيها السير، وعم جميع جهاتها الخير، ذات سواق تشوق القلوب بحنين دورانها، وتسوق طرف الطرف 3 فى ميادين روحها وريحانها، مطردة أنهارها، يانعة ثمارها، متجاوبة طربا أطيارها، ظلها ظليل، وماء جداولها سلسبيل، قد ناب نيلها عن الأمطار[1]، ورطب ليلها ما جففه النهار، زيادات نيلهم عن تجاربهم موروثة، وعهود موافاتهم إلى لقاء المفرد[2] بساحله غير منكوثة، وكاسات لذاتهم بغنم محاضرتهم محثوثة:

إذا انحدرت حراقة المفرد ارتوت ... بلادهم شرقا وغربا (إلى مصر)[3]
وإن عاقها من حادث الدهر عائق ... فعسر إلى عام جديد بلا يسر
ولم أر أرضا كالصعيد صباحة ... إذا شربت من ماء[4] عشرين فى الحر
يمد عليها النيل فى العام مده ... ولكنه مد يؤول إلى جزر
فيجعلها بحرا يعب عبابه ... وتبدو القرى فى الشرق والغرب كالجزر
إلى أن يعم الجانبين بريه[5] ... فيطويه من قد كان أذن بالنشر

(١) فى الأصل: الأوطار.
(٢) فى الأصل الفرد . والمفرد هو المبشر بأحوال وفاء النيل.
(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٤) ليست فى ب، جـ.
(٥) فى ب، جـ: سريه.

1 فدافدها: الفدافد جمع فدفد، وهى الأرض الواسعة المستوية لا شىء بها.
2 سورة مريم، الآية ٧١.
3 الطرف: الكريم من الناس والخيل ونحوها.

لها كل فصل ملبس ترتدى به وخصت بأمن وانتصار مدى الدهر
فبر[1] صيفها قارورة وخريفها فعنبرة سوداء طيبة النشر[2]
وأما شتاها فالزروع زمرد ويرجع فى فصل الربيع إلى التبر

ثم انحدرت إلى مصر فى أطيب عيش وأحلاه، وأقرب زمان وأهناه، أما القاهرة فقد طال صيتها[3] فى البلاد، بكثرة العساكر والأجناد، إن ركبوا فأفخر زى ولباس، وإن ركنوا فإلى ركن شديد الباس، راسخ الأساس، جيوش على الأعداء منصورة، وبتأييد الملائكة مسرورة، ألويتهم فى الخافقين خافقة، وألسنة صوارمهم فى جماجم الأعاجم والروم ناطقة، ورماح سراياهم إلى تشتيت شمل الطغاة شارعة، وقلوبهم إلى التلطف بالرعايا وحفظ البلاد مسارعة مطاوعة، ولإجابة داعى الحق سامعة[4]:

كأنما نشأوا عن روضة أنف خلقا وخلقا عن الصفاح والعمد
حاطوا البلاد عن الأعداء قاطبة حتى غدا الذئب مرعيا مع النقد1
فلو مشت نملة حول الفرات لطا روا نحوها بالخيل والعدد
قوم أقاموا رواق العز فوقهم واسترغدوا العيش بعد الكد والنكد

(١) فى ب، جـ: قتر.
(٢) فى الأصل: النثر.
(٣) فى الأصل: أطال وصيتها.
(٤) فى الأصل: مسارعة.

1 النـقد: صغار الغنم.

فإن طلبت حياة النفس طيبة فعن جوارهم يا صاح لا تحد
ناهيك عن بلدة زاد الإله لمن يحلها بسطة فى الجاه والجسد
يجبى إليها من الخيرات أطيبها فأهلها فى نعيم دائم الأبد
قصورها بجمال الغيد خالبة والعقد فى الجيد يبدى الحسن فى الجيد

تجرى بها سفن اللذات فى خلج نيل المسرات فيها زائد المدد
تجاور الناس فيها بالجميل (فأضـ حى) [1] كلهم خلا من سورة الحسد
يا طيب أوقات من قضى بها وطرا واختارها مسكنا للأهل والولد

وأما مصر فقد خصت بالأكياس من سائر الناس، يتنازعون بين كؤوسهم الإيناس، ممزوجة بطيب الأنفاس، وسلسال سلسبيل ماء المقياس، ويتقلبون فى أسواقهم بين أعياد و أعراس، لا يتنادمون بغير القصف والخلاعة، ولا يتحاكمون إلى غير السمع والطاعة. ضمت نسيمات [2] روض الأنس شملهم فكل خل بما قد ناله راض، فعل اللذاذات حال بينهم أبدا والعيش أطيبه حال بلا ماض. ثم انحدرت إلى ثغر الإسكندرية أوان خليجها الكافح، وطالع سعده اللائح، وحس سواقيه السوانح للسوانح 1، ونغمات مزملاتها الصوادح 2، وفصاحة مشاشات ولدان أعرابه لكل منحدر أو مصعد ممازح، ونسيم جوه الندى الأريج، ونشر أترجه ونارنجه البهى البهيج، وزهو نخيله المرخى الأكمام، وزهر روضه المبتسم لبكاء الغمام، وحسن قناطره المحنية لطول القيام، على برد من مائه وسلام. لكن عيش التجار لا يصفو من الأكدار، ولا يقر لهم بدار قرار؛ لأنهم فى فلك من الهموم دوار، آناء الليل وأطراف النهار، إن خرجوا فى مغاولة بطون البحار، ومعاناة الشد

(١) هذه الكلمة ليست فى الأصل.
(٢) فى الأصل: نيرات.

1السوانح الأولى صفة للسواقى، وهى بمعنى دورانها من المياسر إلى الميامن، وبه تتفاءل العرب. والسوانح الثانية من قولنا: سنح الشىء، إذا استقبله بيده.
2 الصوادح: جمع صادحة. يقال: صدح الطائر، إذا رفع صوته فأطرب.

والترحال، بمفاوز القفار، دخلوا فى جوف ما خف أو ثقل من أصناف البهار، فقد اشتغلوا عن لذة المأكول والمشروب، بكد الأبدان ونصب القلوب، فأمالوا الأسماع، عن نغمات السماع، ونفروها عن مواعظ الجوامع، واستحثوها إلى الاستخبار عن أسعار البضائع، لا تخطر متنزهات الدين لهم بخاطر، ولا يطوف بقصور الرمل لهم باد ولا حاضر.

وأنشد:

كم حل فى هذه [1] الأسفار ذو حيل ... وحال والحرص للأثقال حمال

يمزق العمر فى ترقيع سفرته ... لشقة السير قطاع ووصال

طورا يساير سيدان 1 المفاوز لا ... يثنيه عن شاسعات الدو 2 أهوال

فى كل خبت 3 له عيش يدل بها ... عزم له إن ونت وخد 4 وإرقال [2]

وتارة فى عباب اليم مقتعرا [3] ... (دهماء ظل) [4] لها فى الموج تصهال

يجوب شرقا وغربا فى طلاب مشقـ ... ـات بها لحديث النفس تجوال

حتى إذا ما طواه الموت وانقطعت ... من حبل آماله فى الترب أوصال

---

(١) فى جـ: لذة.

(٢) فى ب: وإزقال . والإرقال: الإسراع فى السير.

(٣) فى ب: معتقدا.

(٤) فى ب، جـ: وهما فلك.

(٥) فى ب، جـ: أهله.

(٦) فى ب، جـ: العمر .

---

1 سيدان: جمع سيد وهو الذئب.

2 الدو: الفلاة الواسعة.

3 خبت: الخبت من الأرض ما انخفض واتسع.

4 وخد: يقال وخد البعير وخدا، إذا اتسع خطوه وأسرع.

5 شقة: هى القطعة المستطيلة من الثوب.

6 منوال: هى خشبة الحائك التى يلف عليها الثوب. وقيل: هو الحائك نفسه.

قامت رجال على آثار همته والناس فى طلب الأرزاق أشكال
فلا تقل قد مضى وقت المكاسب فالـ أرزاق باقية والمرء محتال
واحرص على كسب ما ينجيك فى غدك الآتى إذ المال عن أهليه [٥] ميال
بينا ترى المرء مسرورا بصحبته والعمر مثل كثيب الرمل منهال
الليل[٦] يطويه والأيام تنشره كأنه شقة 5 والكون منوال6
إن قصر الخطو منه خطر[١] فله باع يطوله حرص وآمال
لا يستريح ولا يرتاح إن عرضت له البطالة أو فاتته أشغال
ولو تفكر فى الدنيا للاح له منها كما لاح فى قاع الفلا آل1

قال الراوى: فلم أزل بين تزلزل عيش، وتثاقل وطيش، إلى أن رميت جمار جميع البضائع اليمنية والهندية، وقضيت المنى من منى ثغر الإسكندرية، ثم أسرعت العودة على طريق الصعيد، راجيا لقضاء صاحبى الذى هو بيت القصيد، وهان على لأجله[٢] نكد الأعراب، وتلاطم أمواج بطن حباب. فاتفق الأمر العجاب، أن لقيته بصحراء عيذاب، حاديا ركائبه بدم الاغتراب، وصافحته مصافحة الأحباب، فوجدته قد استعد قبل السؤال للجواب، بألفاظ عـذاب، وجفان بأدويـة [٣] الآداب جواب:

قل للذى يسألنى: ما الذى أخرجنى من بعد توريط ؟
من عدن أخرجنى حرها المنتج أدواء النفافيط2
وقلة الخضرة مع ما ببا ب البر من خوف وتحييط [٤]
وماؤها المحفوف فى الشعب لا يملك إلا بالقراريط

(١) فى الأصل: خطه.
(٢) فى الأصل: لأهله.
(٣) فى ب: بأردية. وفى جـ: بأودية.
(٤) هذا البيت والذى يليه لم يردا فى الأصل.

والخبز غالى السعر فى سائر الأوقات مأكول بتسخيط [٥]

وزرعها [٦] فى البحر فاعجب لمن يرجو التمنى من غير تحويط

وليس فيها نزهة تزذهى النـ ـفس سوى ظل السوابيط1

وكل من يمرض فيها فما دواه غير المشاريط

والكرسى إن حرك كؤوساته سلط فيها أى تسليط

وغير الجو بترب من الـ كيمان والأنحاس مخلوط

وماؤها الملح له لذعة تدمى مخاصى كل مسموط2

قد جعل الآس درورا له كنائم فى المهد مغموط

تراه كالمختون إن راح أو غدا عجولا أو كقيليط3

وإن مشى فى السوق صبت عليـ ـه سحب أو ساخ بتمليط

وإن تعرى طاب[٢] نفسا ولا يرغب فى ملبوس مخيوط

وقل من يسكنها وهو ذو وجه لفعل الخير مبسوط

لكن لجمع المال مستحسن من غير تبذير وتفريط

يعوذ الدرهم إن جاءه خوفا عليه بالشراميط[٣]

تجمعوا فيها صعيدى وذا (ك مقبل) [٤] من بحر ديروط

---

(٥) فى الأصل: بتشحيط.

(٦) فى الأصل: زربها.

---

1 آل: أى سراب.

2 النفافيط: جمع نفطان وهو مرض شبيه بالسعال.

(١) فى الأصل: قطب.

(٢) فى ب: بالترابيط.

(٣) ليست فى الأصل.

obeikandi.com

وذا من الغرب وذا من بلا د الشرق والآخر زهوط[١]

وكلما قيل أتى مركب تناوبوا[٢] من غير تثبيط

كل يرى الساحل رأيا صوا با وهو راج بعد[٣] تقنيط

يمسح فى لحيته مفكرا من غير تسريح وتمشيط

بكفه مروحة قد حكت هيئتها[٤] طير الوطاويط

بالقذف فى غفلته ساهيا بها كما يقذف في[٥] شيط

حتى إذا صافح من جاء فى الـ مركب من حر وملعوط[٦]

وألقيت فى يده رقعة من بعد وصل ذات تخطيط

وظل فى أسطرها ناظرا ما بين مصلوح ومكشوط

يعرب عن معجم ما جاءه من كل محلول ومربوط

فإن رأى الأرز بها وافرا من طبق باللاك مخروط

أبدى سرورا ومشى معجبا وقال قد أوفى بمشروط

حتى إذا أنزل ما جاءه بهن تبقيط 1 وتشحيط [٧]

---

(٤) فى ب: دهوط.

(٥) فى ب، جـ: تثاوبوا.

---

1 السوابيط: جمع ساباط وهى سقيفة بين حائطين تحتها ممر نافذ.

2 مسموط: هو الصياد، وسمى كذلك للزومه لمكان الصيد كلزوم السمط ـ وهى القلادة ـ للعنق.

3 كقيليط: القيليط: الآدر المنتفخ الخصية.

(١) ليست فى الأصل.

(٢) فى ب: هيقها.

(٣) فى الأصل: لى.

(٤) فى ب: ملقوط. والملعوط: هو الحبشى الذى يخط فى وجهه خطوطا.

(٧) فى ب: وشخيط. وفى جـ: وتسخيط. وفى البيت إقواء.

وصار فى الفرضة فى جانب لزحمة الأوباش مضغوط[1]
وجاز كى يحتاز مستقبلا لضرب مرك كالخوابيط
يخط فى أكتاف غلمانه ما بين مسكوك ومنقوط
قواعد قد أسسوها فما يخرج شىء غير مضبوط
فقل لمن يسكنها راضيا يؤت بعيش غير مغبوط
كم فى بلاد الله من مسكن ما بين أسوان ومريوط
يرتاده العاقل لكنها شقوة[2] مغبون ومغلوط

ثم إنه (قال بعد أن)[3] قصر فى السؤال[4] وطول فى الدعاء والابتهال:

الحمد لله الذى أقال من تلك العثرات الثقال، وسلم النفس والأهل والمال من هاتيك الأهوال، ورد العقبى والمآل إلى أجمل الأحوال".

وفى المحرم سنة خمس وتسعين وستمائة حدث أمر عجيب، وذلك أن شابا من بعض أهل القرى خرج بثور له يسقيه الماء، فلما فرغ الثور من شربه حمد الله، فتعجب الشاب من ذلك، وحكاه فلم يصدق، ثم خرج به ثانى يوم فشرب الثور وحمد الله بعد فراغه، فكثر ذكر ذلك فى القرية. ثم خرج به ثالث يوم وحضر أهل القرية، فعندما فرغ الثور من شربه سمعه الجميع وهو يحمد الله تعالى، فتقدم إليه بعضهم وسأله، فقال الثور بكلام سمعه من حضر: إن الله عز وجل كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدبا، ولكن بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم أبدلها الله بالخصب. وذكر أن النبى ﷺ أمره بتبليغ ذلك إلى الناس، وقال الثور: فقلت: يا

(١) الوجه أن تكون مضغوطا لأنها خبر صار.

1 تبقيط: أى تفريق وأخذ القليل فالقليل.
(٢) فى الأصل: مشقوة.
(٣) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٤) فى ب، جـ: المقال.

رسول الله ما علامة صدقى عندهم ؟ قال: أن تموت عقب الإخبار. ثم مضى الثور إلى موضع مرتفع ووقع ميتا، فتقاسم أهل القرية شعره للتبرك به، وكفنوه ودفنوه، وكتب بذلك محضر وثبت على قاضى الناحية، وأحضر إلى السطان. ذكره المقريزى فى تاريخه.

(وفى سنة ست وتسعين وصل النيل إلى أول توت خمس عشرة ذراعا وثمانية عشر أصبعا، ثم نقص ولم يوف، وفى سنة سبع وتسعين أوفى النيل آخر أيام النسىء، وفى سنة تسع وتسعين أوفى فى ثالث عشر توت، وفى سنة اثنتين وسبعمائة قال الحافظ البرزالى فى تاريخه) [1]: قرأت فى بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهرت دابة عظيمة الخلقة من بحر النيل فى أرض المنوفية، وصفتها لون الجاموس بلا شعر، وآذانها كآذان الجمل، وعيناها وفرجها مثل الناقة، يغطى فرجها ذنب طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمك، ورقبتها مثل غلظ التيس المحشو تبنا، وفمها وشفتاها مثل الكربال، ولها أربعة أنياب، اثنان من فوق واثنان من أسفل، طولها طول الشبر وعرض أصبعين، وفى فمها ثمانية وأربعون ضرسا وسنا مثل بيادق الشطرنج، وطول يديها من إبطها إلى الأرض شبران ونصف، ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان، أصفر مجعد، ودور حافرها مثل السكرجة 1، بأربعة أظافير مثل أظافير الجمل، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما، وفى بطنها ثلاثة كروش، ولحمها أحمر، وزفرتها مثل السمك، وطعمه كلحم الجمل، وغلظ جلدها أربع أصابع ما تعمل فيه السيوف، وحمل جلدها على خمسة أجمال فى مدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل، وأحضروه إلى القلعة بين يدى السلطان، وحشوه تبنا وأقاموه بين يديه. انتهى.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

---

1 السكرجة: إناء صغير يوضع فيه الطعام القليل.

وفى هذه السنة أبطل الأمين ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذى تولى السلطنة بعد ذلك ـ وهو صاحب الخانقاه البيبرسية ـ عيد الشهيد الذى كان يعمل بمصر، وذلك أن النصارى كان عندهم تابوت فيه أصبع يزعمون أنه من أصابع شهدائهم، وأن النيل لا يزيد ما لم يلق فيه هذا التابوت، وكان يجتمع النصارى من سائر النواحى إلى شبرا، ويلقى هذا التابوت فى النيل فى ثامن بشنس، ويقع هناك أمور فظيعة من سكر وغيره؛ فأبـطل لذلك إلى يومنا هذا، ولله الحمد.

وفى سنة أربع وسبعمائة أوفى النيل رابع توت، وكان فى سنة خمس، وفى سنة تسع وسبعمائة توقف النيل واستسقى الناس فلم يسقوا، وانتهت زيادته فى السابع والعشرين من توت إلى خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعا، ثم نقص ثم زاد وأوفى ستة عشر ذراعا فى تاسع بابه، وتشاءم الناس بسلطنة المظفر ركن الدين بيبرس، وغنت العامة فى ذلك:

سلطاننا ركين 1، ونائبنا دقين 2، يجينا الماء من أين، يجيبوا لنا الأعرج 3، حتى[1] يجى الماء ويدحرج.

وقال الأديب شهاب الدين أحمد بن عبدالدايم الشارمساحى يذكر ذلك لما خلع بيبرس وأعيد الملك الناصر:

ولى المظفر لما فاته الظفر ... وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا ... كادت على عصبة الإسلام تنتشر[2]

---

(١) ليست فى الأصل.
(٢) فى ب: تنتصر.
(٣) فى ب، جـ: الله.
(٤) فى الأصل، ب: وأما.

---

1 ركين: المراد به السلطان ركن الدين بيبرس.
2 دقين: المراد به الأمير سلار النائب.
3 الأعرج: هو الناصر محمد بن قلاوون، وكان برجله عرج.

وقل لبيبرس: إن الدهر[٣] ألبسه أثواب عارية فى طولها قصر
إذا تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمن لا النيل أوفى ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته وابن المرحل قل لى كيف ينتصر؟

قال المقريزى: اتفق فى هذه السنة أمر غريب قل ما عهد مثله، وهو موت سلطان مصر الملك المظفر بيبرس، وإمام [٤] الشافعية بها الشيخ نجم الدين بن الرفعة، وقاضيها وإمام الحنفية فى عصره قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم السروجى شارح الهداية، ومفسرها الإمام عز الدين عبدالعزيز بن عبدالجليل النمراوى، والمتكلم على القلوب بها الشيخ تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء الله صاحب الكلام الرائق الفائق، وشيخ الشيوخ بها كريم الدين كريم بن عبد الكريم بن الحسين بن أبى بكر الآملى الطبرى شيخ خانقاه سعيد السعداء، وواعظها نجم الدين بن العنبرى، ومحتسبها القاضى بدر الدين حسن بن نصر الأسعدى المحتسب، وناظر جيوشها القاضى بهاء الدين عبد الله بن أحمد الحلبى، وأديبها شمس الدين محمد بن دانيال الموصلى مصنف كتاب « طيف الخيال ».

وقال الشهاب الحجازى: وجد فى رسالة فى وصف النيل: كتب الشيخ نور الدين على سبط الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض إلى القاضى معين الدين بن حشيش وهو يومئذ بالشام:

المملوك نهى أنه كان فى سنة تسع وسبعمائة لما كان مولانا السلطان الملك الناصر بالكرك، غضب النيل على أهل مصر لغضبه، ففعل بهم وترك ما ترك، تذكر كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى نيل مصر عند توقفه فى زمانه، وهو كتاب مبارك تشرف النيل بعنوانه، وافتخر بخطاب ابن الخطاب له، وقبله وقبله وجرى ببركته المدائن والقرى، ولم يتقبل منهم بعد ذلك قربانا ولا قرى، فطاف المملوك بمغناه ونظم معناه، وقال:

يا أيها النيل المبارك إن تكن من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك تأتنا فالله يبسط بره فى بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها ملأ الإله بيوتها من بره
يا ذا الوفاء أراك جئت بلادنا والحر لم يشن الوفاء بغدره
إن كان دفؤك لا يجىء تأدبا إلا بإذن مليكه فبعذره
فإذا الصليبى اللعين بجهله والكفر يركض فى جوانب صدره
مسرى سرى والنيل أصبح واقفا [1] قد فاتنا تغليقه فى شهره
فمضى النسىء وليس فيه زيادة إن النسىء زيادة فى كفره
أهون به وبشهره ونسيئه وشهيد شبراه وطينة بئره
نحن الذين لنا بجاه محمد عند الإله بحمده وبشكره
ما يرتجيه غنينا بغنائه وفقيرنا (فى الالتذاذ) [2] بفقره
ندعو ونستسقى الغمام بوجهه فبذاك أخبر عمه فى شعره
يا رب خير العالمين محمد بجمال سائره الشريف وسره
يا رب أجر لنا توقف نيلنا وأدم مسرة نيلنا من بحره
يا بر إن البر أصبح غاليا فارخص بحقك ما غلا من سعره
وارحم بفضلك ركعا أو ضرعا [2] أو رتعا فى ذا الوجود بأسره
وأغث عبادك فى بلادك بالوفا واسبل على المقياس خلعة ستره
وأضف إلى تعليقه تغليقه حتى نرى تعليقه فى مصره
وأفض على السد المبارك ماءه واكسره رب فجبرنا فى كسره

---

(١) فى جـ: واقعا.
(٢) فى الأصل: بالمال زاد .
(٢) فى ب، جـ: رضعا.

وابعث لنا بعد الوفاء زيادة يحيى بها ميت الثرى من قبره

فقد استجرنا بالنبى محمد وبيوم مولده الشريف وشهره

وكتب المملوك بهذه الأبيات العربية، وجعلها فى باطن قصبة فارسية، وألقاها فى البحر عند المقياس، على ذلك القياس، فتفجر الماء من منابعه، وأشار إلى الوفا بأصابعه، واستمرت الزيادة، قبل الوفاء وبعده على العادة، حتى انتهى إلى حده[1]، وجبر الله تعالى القلوب بكسر سده، وعمر الأرض ببركات عمر، وعمر آجال الأعمار [2] وعمر، وأقبل أمين الماء يهلل ويلبى، ويقول: هذا رحمة من ربى. وانحط السعر الغالى، وتواضع قدره العالى، وذهب الباس والياس، وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.

وفى ثلاثة عشر وسبعمائة أوفى النيل آخر أيام النسىء، وفى سنة سبع عشرة أوفى تاسع عشرى أبيب وعلق الستر، فنقص من ليلته ثلاثة أصابع، فكسر الخليج ثانى يوم مع النقص، ثم زاد زيادة عظيمة. وفى سنة تسع وثلاثين انتهت الزيادة إلى ستة عشر ذراعا وعشر أصابع، فلم ترو الأراضى كلها، وغلت الأسعار.

وفى سنة أربعين وسبعمائة توقف النيل توقفا زائدا، فاجتمع الناس ليلة السابع والعشرين من المحرم بجامع مصر والقاهرة للدعاء بزيادته، ودعوا على النشو ناظر الخاص طول ليلتهم، وكانوا جموعا كثيرة إلى الغاية، فلما كان يوم الاثنين ثانى صفر زاد ست أصابع، وقبض فى هذا اليوم على النشو، وأفرج عن الصاحب شمس الدين موسى بن التاج إسحاق وأخيه، فقال فى ذلك علاء الدين على بن فضل الله كاتب السر:

---

(١) فى الأصل: حره. وفى ب: جده.

(٢) فى ب، جـ: الأعمال.

---

1 هو أبو عبد الله شمس الدين، محمد بن حسن بن سباع بن أبى بكر الجذامى، المعروف بابن الصائغ، أديب، عالم بالعربية، مصرى الأصل، دمشقى المولد والوفاة. كان له حانوت بالصاغة. توفى سنة ٧٢٠ هـ.

فى يوم الاثنين ثانى الشهر من صفر نادى البشير إلى أن أسمع الفلكا
يا أهل مصر نجا موسى ونيلكم طغى وفرعون وهو النشو قد هلكا

وقال الشيخ شمس الدين بن الصايغ1:

لقد ظهرت فى يوم الاثنين آية أزالت بنعماها عن العالم البوسا
تزايد بحر النيل فيه وأغرقت به آل فرعون وفيه نجا موسى

وقال الكمال جعفر الإدفوى 1:

إن يوم الاثنين يوم سعيد فيه لا شك للبرية عيد
أخذ الله فيه فرعون جهرا وغدا النيل فى رباه يزيد

وبلغ النيل فى هذه السنة سبعة عشر ذراعا وتسع عشرة أصبعا. وفى سنة أربع وأربعين بلغ النيل عشرين ذراعا وخمس عشرة أصبعا. وفى سنة سبع وأربعين قل ماء النيل حتى صار ما بين المقياس ومصر يخاض، وصار من بولاق إلى منشأة الهرانى، ومن جزيرة الفيل إلى بولاق، ومنها إلى المنية [1] طريقا واحدا، وبعد على السقايين موضع الماء، وبلغت الراوية الماء إلى درهمين فضة بعد أن كانت بربع درهم. فبلغ السلطان الملك الكامل شعبان غلاء الماء بالمدينة وانكشاف ما تحت بيوت البحر من الماء، فركب ومعه الأمراء وكثير من أرباب الهندسة، حتى كشف ذلك فوجد الوقت فيه قد فات بزيادة ماء النيل، واقتضى الرأى أن ينقل التراب والشقف 2 من مطابخ السكر بمدينة مصر، وترمى من بر الجيزة إلى المقياس، حتى

(١) فى ب: المفية . وفى جـ: المدينة.

1 هو أبو الفضل كمال الدين، جعفر بن تغلب بن جعفر الإدفوى: مؤرخ، له علم بالأدب والفقه والفرائض والموسيقى، ولد فى إدفو وتعلم بقوص والقاهرة، وهو صاحب كتاب (الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد). توفى بالقاهرة سنة ٧٤٨ هـ.

2 الشقف: الخزف أو المكسور منه. والمفرد: شقفة.

يصير جسرا يعمل عليه ويدفع الماء إلى الجهة التى انحسر عنها، فنقلت الأتربة وألقيت هناك إلى أن بقى جسرا ظاهرا، وتراجع الماء قليلا إلى بر مصر، فلما قربت الزيادة علا الماء على هذا الجسر.

وقال المقريزى فى حوادث سنة تسع وأربعين: كان ماء النيل قد نشف فيما بين بر مدينة مصر والروضة، فصار فى أيام احتراق الماء رمالا. فوقع الاتفاق على عمل جسر، وقام منجك على عمله، فضرب له خاما بالروضة، واجتمع للعمل خلائق، وعمل جسر من الجيزة إلى المقياس وآخر من الروضة إلى الجزيرة الوسطى، فأقاموا فى عمله أربعة أشهر، وكان طول جسر الروضة مائتى قصبة فى عرض ثمانى قصبات وارتفاع أربع قصبات، وطول جسر المقياس مائتين وثلاثين قصبة، وعدة ما رمى فيه من المراكب الحجر اثنا عشر ألف مركب سوى التراب والطين، وغرم عليه ما لا يمكن حصره، وجبى ذلك من كل من فى البلدين [1]، من القاهرة ومصر.

وفى سنة إحدى وخمسين بلغ النيل سبعة عشر ذراعا فقط، وهبط فى خامس توت فشرقت 1 بلاد كثيرة، وتوالت الشراقى 2 ثلاث سنين، فشق الأمر فيها على الناس.

وفى سنة ستين بلغ النيل أربع أصابع من عشرين، وثبت إلى أول هاتور، فخرج الناس ودعوا حتى هبط.

وقال فى ذلك البرهان القيراطى:

فى عام ستين انتهى الدفع [2] الذى فى النيل للعشرين فى التحرير
وأتت من الجيش المياه فلا تسل ما قد جرى منها على التكرور

وقال نثرا: وأما النيل فإنه زاد فى كره وكثر نيله، وتراكم سيله [3]، ولازم

(١) فى الأصل: البلد.
(٢) فى ب، جـ: الرفع.
(٣) فى الأصل: ميله. وفى جـ: سبيله.

المعشوق ملازمة العاشق، وقطع الطريق بكثرة مياهه، وكادت تحصل بارتفاعها إلى الطارق، وشبك بالخمس أصابع أصابعه، وغار على ما هنالك من الضياع الثلاث والعدوية رابعة، وتوجه إلى مصر فعم جهاتها وما خصص، وأقام بدار النحاس ورصص.

وقال أيضا فى رسالة:

وأما النيل فقد عقدت خيامه على أوتار الجبال الطنب، وغسل بمائه الجار الجنب، وأذاق الشجر الأخضر من محمر [1] مائه الموت الأحمر.

وفى سنة إحدى وستين قال المقريزى: كان النيل مما يتعجب منه، فإنه جاء القاع نحو اثنتى عشرة ذراعا، وأوفى سادس مسرى، وبلغ تسع أصابع من عشرين ذراعا، ثم بطل النداء عليه فبلغ نحو أربع وعشرين ذراعا، وخرب عدة مساكن، وثبت إلى خامس بابه، فخرج الناس من الغد ودعوا الله فهبط من يومه أربع أصابع، وعمل فى ذلك الأديب شهاب الدين بن أبى حجلة كتابا يسمى (السجع الجليل فيما جرى من النيل) قال فيه:

وأما البحر الذى بنى عليه عنوان هذه العبودية، فلا تسأل ما جرى منه، وما نقلت الوراق من العجائب عنه، والذى [2] أنه عم قدومه بنفع البلاد، وساوى بين بطون الأودية وظهور الوهاد، وقدم المفرد مبشرا بوفائه فى جمع لا نظير له فى الآحاد، واحمر على من طلب الغلاء عيونه، وتكفل للمعسر بأن توفى بعد وفائه ديونه، ونزل السعر حين أخذ منه طالع الارتفاع، وأحدق بالقرى فأصبح كأنه سماوات كواكبها الضياع، فلم يكن بعد ذلك إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى

---

1 فشرقت: أى جفت من عدم الرى. فهى شرقة.

2 الشراقى فى كلام أهل مصر: الأرض التى لم يصلها ماء النيل.

(١) فى ب: محو.

(٢) كذا بالنسخ الخطية، ولعله سبق قلم، والوجه أن تكون: وذلك.

عسل1 فى شوارع مصر كما عسل 1 الطريق الثعلب، وجاس خلال ديارها فأصبح على زرابيها المبثوثة بسطة، وأحاط بمركز المقياس إحاطة الدائرة بالنقطة [1]، ثم علت أمواجه، واشتد اضطرابه، وكاد يمتزج بنهر المجرة الذى الغمام زبده، والنجوم حبابه.

(وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

أما دير الطين) [2] فقد لبس سقوف حيطانه، واقتلع أشجار غيطانه، وأتى على ما فيه من حاصل وغلة، وتركه ملقة 1 فكان كما قيل: زاد الطين بلة.

وأما الجيزة فقد طغى الماء على قناطرها الخمس وتجسر، ووقع فيها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر، فأصبح بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب، فاصل الخضاب، غارقا فى قعر[3] بحر لجى [4] ﴿ **يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ**﴾ 2، وقطع طريق زاويتها على من فيها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء، ﴿**فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ**﴾ 3، ﴿**أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ**﴾ 4، وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، وغشيهم من اليم ما غشيهم ﴿**فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**﴾ 5، وخر عليهم السقف من فوقهم فانهدمت قواهم، واستغاثوا [5] من كثرة الماء الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

---

(١) فى الأصل: بالمنطقة.

---

1 عسل: مضى مسرعا. والمعنى مأخوذ من قول ساعدة بن جؤية:

لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب

(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٣) ليست فى ب.

(٤) فى الأصل، ب: طى.

(٥) إثبات الواو هنا على لغة من يقول أكلونى البراغيث. أو تكون الباء سقطت من قوله: الذين، أى: بالذين.

---

1 ملقة: ملساء.

وأما الروضة فقد أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، والكأس بحباب خمره.

فكأنها فيه بساط أخضر وكأنه فيها طراز مذهب

فكم بها من متهم ومنجد، ومسافر مما حصل له من المقيم المقعد، وحائك أصبح حول نوله ينير، وجعل من غزله بل من غيظه على أجيره يحمل ويسير، ومنجم وصل الماء من منزله إلى العتبة الخارجة فأصبح فى أحسن تقويم، ودخل إلى بيت أمراضه ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ 1، فأصبح فى الطريق وعليه كآبة وصفرة، ودموعه فى المحاجر كالحصى لها اجتماع وحمرة، وشاعر أوقعه فى الضرورة بحره المديد، واشتغل بهدم داره عن بيت القصيد، وعروضى [1] ضاقت عليه الدائرة فقال: هى الفاصلة، وقلع من عروض بيته وتدا أزعج بقلعه مفاصله، ونحوى اشتغل عن زيد وعمرو ببل كتبه، وذهل حين استوى الماء والخشبة، عن المفعول معه والمفعول به، وطار عقله لا سيما عن تصانيف ابن عصفور، وأخبر أن البحر وأثاث بيته جار ومجرور.

وأما الجزيرة الوسطى فقد أفسد جل ثمارها، وأتى على مقاثيها فلم يدع شيئا من رديها وخيارها، وألحق موجودها بالمعدوم، وتلا على التكرورى ﴿**سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ**﴾ 2، وأخلق ديباجة روضها الأنف، وترك قلقاسها بمده وجزره على شفا

---

2 سورة النور، الآية ٤٠.
3 سورة القلم، الآية ٢١.
4 السورة نفسها، الآية ٢٤.
5 سورة ص، الآية ٣.
(١) فى الأصل: عرضى.

---

1 سورة الصافات، الآيتان ٨٨، ٨٩.
2 سورة القلم، الآية ١٦.
3 هى منشأة المهرانى.
4 سورة البقرة، الآية ٢٥٩.
5 سورة يوسف، الآية ٦٣.

جرف.

وأما المنشأة 3 فقد أصبحت للبحر مقرة، بعد أن كانت للعيون قرة، وقيل لمنشيها: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ 4، فقال: يحييها الذى أنشأها أول مرة، ومال على ما فيها من شون الغلات كل الميل، وتركها تتلو بفمها الذى شقتاه مصراعا الباب: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ 5.

وأما بولاق فقد أصبحت صعيدا زلقا من الملق، وقامت قيامة المار بها حين التفت الساق بالساق من الزلق، فكم اقتلع بها شجرة بشروشها، وترك ساقته[1] تنوح على أختها التى أصبحت خاوية على عروشها.

وأما الخليج الحاكمى فقد خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية، ومرق من قسى قناطره كالسهم من الرمية، وتواضع حين قبل بحارة زويلة عتبات غرفها العالية[2]، وترك السقايين فى حالة يعجز عن وصفها صريع الدلاء 1 وحماد الراوية 2، فأصبحوا من الكساد وقد سئموا الإقامة، قائلين فى شوارع مصر: يا الله السلامة.

وقال ابن أبى حجلة فى سنة ستين[3] وسبعمائة وقد زاد النيل حتى غرق البلاد ووقع الوباء:

عم الوباء لأن الناس قد باءوا وزاد طغيانهم لما طغى الماء

---

(١) فى ب: ساقية. وفى جـ: سواقيه.

(٢) فى جـ: الغالية.

(٣) فى الأصل، ب: اثنتين. وهو خطأ، فإن ابن أبى حجلة ولد سنة ٧٢٥ هـ.

---

1 صريع الدلاء: هو أبو الحسن محمد بن عبد الواحد البصرى، نزيل بغداد، شاعر صاحب مزاح ولعب، له ديوان مشهور، تحول إلى مصر ومات بها سنة ٤١٢ هـ.

2 حماد الراوية: هو أبو القاسم حماد بن سابور بن مبارك الشيبانى مولاهم، راوية الشعر والنسب والأخبار، كان أحد الأذكياء، توفى سنة ١٥٦ هـ.

باءوا بإثم وتاب الآن طائعهم وما لعاصيهم لام ولا باء
تالله ما راعهم من موت أكبرهم بمصر ميم ولا واو ولا تاء
يا واسع الجود رفقا بالعباد فقد ضاقت بمصر من الأموات أحياء
يا رب إن الوبا حمت ركائبه وحل بالناس لما حل حماء
مستهم منه صفرا لا مساس لها لو مسها حجر مسته ضراء
أمسى الطبيب مريضا كالمريض بها حديث هذا وذا رمز وإيماء
تغير الريح فى مصر فساكنها إذا سرى نكبته منه نكباء
هذا على قول قوم لا عقول لهم فى زعمهم أنهم قوم أطباء
وقائل: هذه سوداء محرقة ثارت بها فى جميع الناس صفراء
وقائل: إن ماء النيل حين علا وعم عم الورى من أجله داء
هيهات قل للذى يهدى بحكمته عرفت شيئا وغابت عنك أشياء
هذى أمور عجزنا عن مداركها وحار من فهمها القوم الألباء
أين ابن سينا رئيس الطب مات وما شفاه [1] من دائه طاء ولا باء
أين الفلاسفة الماضون قبل ومن أمسى لتاريخه فى الطب أنباء
أين الأئمة فى علم وفى أدب ومن لهم فى بحور الشعر إرساء
أين الذى جمل الدنيا برؤيته وما له عن جميل الفضل إبطاء
لهفى على ابن هشام حين مات بكت عليه فى النحو أفعال وأسماء
لهفى على فتية ماتوا وكان لهم كفتية الكهف فى الإيمان إفتاء

وقال أيضا:

يا رب إن النيل زاد زيادة حلت عرى بنيان كل محلة

(١) فى ب، جـ: شفياه.

ما ضره لو جا على عاداته فى دفقة [1] أو كان يدفع بالتى

وقال أيضا:

أبحر النيل لا تشره ولا تأتى بما نكره
فقد وفيت بالحسنى ولكن زدت فى كره
فلا تكشف لنا حالا فنسأل ربنا الستره
ولا تترك قفا الخبا ز يوما يأكل الدره
فكم من خازن للقمـ ـح أمسى يظهر العذره
ألم تعلم بأنك إن نزلت تركته عره
فشهر دمعه حتى تراه فى الورى شهره
وسر عن مصر فى خير فقد طولت فى العشره

وفى سنة أربع وستين وسبعمائة توقف النيل، ثم أوفى ثالث توت وبلغ أربعة أصابع من ثمانية عشر ذراعا، ثم انهبط فوقع الغلاء، وقال فى ذلك البرهان القيراطى:

النيل ذا العام ما عم البلاد ولا مشى على العدد المعهود فى المدد
يا واصف النقص منه[2] والزيادة لى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد

وفى سنة ثلاث وسبعين كثرت زيادة النيل بحيث زاد على العشرين، وثبت فى أيام من هاتور، فاجتمع الناس بجامع عمرو والجامع الأزهر ودعوا الله لهبوط النيل عدة مرار حتى هبط، وعمل فيه الأديب شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن أبى حجلة التلمسانى مقامته المشهورة المسماة بالزعفرانية، وستأتى قريبا.

---

(١) فى ب، جـ: دفعة.
(٢) ليست فى ب، جـ.

وقال فيه شهاب الدين العطار1 مقاطيع. وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة توقف النيل عن الزيادة بحيث جاء النوروز ولم يوف، حتى قال بدر الدين بن الصاحب:

نيروز مصر بلا وفاء يعد صفعا [(١)] بغير ماء

وقال أيضا:

تقاصر النيل عنا تقاصرا متتابع
حتى قنعنا اضطرارا منه بمص الأصابع

وخرج القضاة والفقهاء وغيرهم إلى جامع عمرو (وجامع الأزهر)[(٢)] وتضرعوا، وكسر الخليج وقد بقى من الوفاء خمس أصابع، فهبط الماء من يومه ولم يعد، فخرج القضاة والناس ثانيا إلى المقياس وقرؤا هناك القرآن، وتضرعوا إلى الله تعالى فى إجراء النيل، فرد ما نقص، ثم عاد فنزل حتى جفت الخلجان، فنودى فى الناس بصوم ثلاثة أيام والإقلاع عن المعاصى والتوبة، فصاموا [(٣)] وخرجوا وهم مشاة حفاة إلى قبة النصر1 ومعهم الأطفال، فصلوا صلاة الاستسقاء، وضجوا بالدعاء، ولم يسقوا، ووقع الغلاء.

قال البدر البشتكى: وقلت فى نيل سنة خمس وسبعين وسبعمائة:

يا أهل مصر نيلكم متكدر من بعد صفو بالوفا لم يسعف
عهدى به يبدى التملق ما له ترك التملق ثم خان ولم يف

---

(١) فى الأصل، ب: صعفا.

---

1 هو شهاب الدين، أحمد بن محمد بن على، ابن العطار، الدنيسرى، أديب، أصله من « دنيسر » له نظم كثير، وكان يمدح الأكابر وينظم فى الوقائع. توفى فى القاهرة سنة ٧٩٤ هـ.

(٢) ما بين القوسين مثبت من ب.

(٣) ليست فى جـ.

---

1 قبة النصر: كانت زاوية للصوفية تقع بالقرب من خانقاه برقوق.

قال: وقلت فى المعنى:

خان الذى قدما وفيت عهوده ... وصفا عليه ما ملكت وما صفا
وتغيرت حالات مصر بعده ... والله حتى النيل قد ترك الوفا

قال: وقلت فيه أيضا:

عاتبت هذا النيل فى ترك الوفا ... فأجابنى حالا بغير توقف
سأفى وإن خانوا وأصلح منهم ... ما كنت أفسده ومثلى من يفى

قال وقد قيل إنه أوفى:

النيل قد وافى بحمد إلهنا ... وجرى على العادات بعد توقف
وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم ... من ذا يفى فى مصر إذ [1] أنا لم أف

وفى سنة أربع وثمانين شرع الأمير جركس الخليل فى عمل جسر بين الروضة والجزيرة الوسطى فى طول ثلاثمائة قصبة وعرض عشر قصبات، وعمل فيه لنفسه ومماليكه، وحفر فى وسط مجرى النيل خليجا ليعود الماء إلى بر مصر ويستمر طول السنة، وأنفق عليه جملة من غير أن يكلف أحدا فيه شيئا.

وقال فيه أدباء العصر شعرا كثيرا، من ذلك قول ابن العطار:

شكت النيل أرضه ... للخليلى فأحضره
ورأى الماء هايبا ... أن يطأها فجسره

وقال أيضا:

راعى الخليلى قلب الماء حين طغى ... بنى على قلبه جسرا وخيره
رأى ترمل أرضيه وحدتها ... والنيل قد خاف يغشاها فجسره

وقال عيسى بن حجاج:

---

(١) فى ب: إن.

جسر الخليلى المقر لقد رسا كالطود وسط النيل كيف يزيد
فإذا سألتم عنهما قلنا لكم ذا ثابت دهرا وذاك يزيد

قال حافظ العصر أبو الفضل بن حجر فى (إنباء الغمر): ولم يفد هذا الجسر شيئا بل انطرد النيل عن بر مصر ونشف إلى قرب المقياس، ثم بعد عشرين سنة حفر النيل لنفسه بغير سعى أحد وصار يلبث[1].

وقال البدر بن الصاحب لما انكشف الماء عن الأرض التى بين الفسطاط والروضة:

كانت بمصر ميزة بنيلها وقد خلت
كأنه بعل لها من بعده ترملت

وفى هذه السنة عمل الأمير جركس طاحونا فى مركب عند بسطة المقياس يديرها الماء برسم طحن القمح دقيقا، فأتى الناس لرؤيتها من كل جانب. قال الحافظ ابن حجر: واستأجرها منه بعض الطحانين فحصل منها مالا عظيما أكثره ممن كان[2] يأتى إليه برسم الفرجة.

قال المقريزى: وقال فيها أدباء الزمان شعرا كثيرا.

وفى هذه السنة قال المقريزى: انتهت زيادة النيل إلى ثلاث أصابع من واحد وعشرين ذراعا، فعد ذلك طوفانا، وكتب الصاحب فخر الدين عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن مكانس إلى البدر البشتكى رسالة فى ذلك:

رب اجعلنا فى هذا الطوفان من الآمنين، وسلام على نوح[3] فى العالمين، ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء، وما قعوده[4] عن رزقه هذا النيل الذى

(١) فى الأصل: عبث. والتصحيح من إنباء الغمر (١/ ٢٥٣).
(٢) مثبتة من ب، جـ. وهو الموافق لما فى إنباء الغمر (١/ ٢٥٤).
(٣) ليست فى جـ.
(٤) فى ب، جـ: قعاده.

النيل الذى جعل فيه البرية كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسماء، وكيف لم ير هذا الطوفان الذى استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظمأ، فهى كزيادة الأصابع الدالة فى الكف على نقصه، وأولى أن ينشد بيت المثل بنصه:

طفح السرور على حتى إننى [1] من عظم ما قد سرنى أبكانى

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وامتزج، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى حدث عن البحر ولا حرج، وتجاوز فى عشر الثلاثين الحد، وأرانا بالمعاينة فى كل ساحل ما سمعناه عن الجزر والمد، وأساء فى دفعه فلم يدفع بالتى هى أحسن، وأقعد الماشى عن التسبب والحركة حتى شكا إلى الله فى الحالين جور الزمن، وسقى الناس فى حياته المعهودة فما شربوا من الموت أصعب كأس.

وسئل ابن أبى الرداد عن قياس الزيادة فقال: زاد بلا قياس، ملأ اليباب 1، وهال العباب، وضاع العد واختلط الحساب، كال فطفف، وزار فما خفف، غسل الجسور، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور، وبدع فكان أولى بقول الحلى [2] بن منصور [3]:

بمكارم تذر السباسب أبحرا وعزائم تذر البحار سباسبا

جمع فى صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصا سوق الرقيق على كل حدبة [4] ذات ألواح. وغدا التيار ينساب فى كل يم كالأيم، وأضحت هضبات الموج فى سماء البحر وكأنما هى قطع الغيم، واستحالت الأفلاك وكل برج مائى، وتغيرت الألوان وكل ما فى الأرض سمائى، وحكى ماؤه

---

(١) فى ب، جـ: إنه.
(٢) زاد بعدها فى الأصل: من.
(٣) فى ب: عصفور.
(٤) فى الأصل: جذبة .

وحكى ماؤه حكاكة [1] الصندل لما مسه شيطان الريح الأهوج فتخبط، وزاد فاستحال نفعه ليحقق ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط، ولقد حكت أمواجه ودوائره الأعكان 2 والسرر، وغدا كل حى ميتا من زيادته لا كما قال المعرى:

حيا من بنى مطر وتحالى إلى أن أقرف [2] الليمون الأخضر

واحمرت عيناه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر، وقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد، وأصبح كل جدول منه جعفر ويزيد، فلست ترى إلا إفاضة شاخص إليه بعين أو مشير إليه بأصبع، فلكم قال الهرم للسائرين: يا سارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض[3]:

أنا الغريق فما خوفى من البلل

وقال المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم ينقل لهذه الزيادة من عهد النهروان وإلى هذا الدهر، وكيف يسوغ لمولانا فى مثل هذه الأيام غير ارتشاف فم الخور؟ ولم لا يغير مذهبه ويطيب على هذا الخليج بالتسلسل والدور؟ وكيف ولم لا يتخذ مولانا حر النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟ وهو فى المبادرة إلى علو المعالى وعلى المعانى، وانتهاز الفرص فى بلوغ الآمال وبلوغ الأمانى.

عجب من أعجاب البحر والبر ونوع مفرد وشكل غريب

---

(١) فى الأصل: حكالة.

(٢) فى ب: أفرق. وفى جـ: أقرق، ويلاحظ أن شطرى البيت مختلفان وزنا.

---

1 اليباب: الخراب. يقال: حوض يباب، أى: لا ماء فيه.

2 الأعكان: ما انطوى وتثنى من لحم البطن سمنا. والواحدة عكنة.

(٣) فى ب، جـ: للحوض.

نعم من قاسكم بسواكم قاس البحار إلى الثمار، أعلى الأنام فى العلوم قدرا، وإمام النحاة من عهد سيبويه وهلم جرا، وشيخ العروضيين على الحقيقة برا وبحرا، وشيخ سيحون والنيل والفرات ودجلة وشيخ جيحون أيضا، وشيخ نهر الأبله، أى والله:

أقولها لو بلغت ما عسى والطبل لا تضرب تحت الكسا

لا مخبا لعطر بعد عروس، أنت والله أعوم فى بحور الشعر من ابن قادوس، وأصلح إذا حدثت [1]، من صالح بن عبد القدوس، وأشهى إذا هزلت من ابن حجاج إلى النفوس:

ولو أن بحر النيل جاراك مازحا وحقك [2] ما استحلى له الناس زائدا

نعود إلى ما كنا فيه من وصف النيل، وذكر حاله الذى أصبح كما قال ابن عبد الظاهر كوجه [3] جميل، فلو رآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار، ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور [4] لم ير منه غير الآثار، لبكى بعينى عروة، وأوى من الرصد وقد تفجرت منه عين النزر إلى ربوة، ولرثى لروض الجزيرة وقد خلع حلاه، وتخلخلت عرائس أشجاره على الحالين بالمياه، والنخيل وقد قتلت بلالها حين قتلت بالأسف، رجف أحمر ثمرها وأصفره فأرانا العناب 1 والحشف 2.

والجيزة وقد قلت لها: تبا لجارك النيل إذ أفسدك صورة ومعنى، وسكن مغانيك فسقى ديارك بغير استثنا، وقراها الغربية وقد قلت لها حين أوت إلى أعالى الأرض هربا من المياه، واعتصمت بالجبل الغربى: لا عاصم اليوم من أمر الله، وكل سفينة

---

(١) فى الأصل: حديث.
(٢) فى جـ: ومحقك.
(٣) فى الأصل: كوجد.
(٤) ليست فى جـ.

وقد علت على وجه الماء، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء، وقد قالت لها أترابها عند الفراق: ألا ترجعى، وقلنا نحن على سبيل التفاؤل: يا سماء أقلعى، والنيل تبدو عليه القلوع خافية لبعدها فكأنها الخيام بذى طلوح3، وجار على الناس بطغيانه فكأنما هو أخو فرعون مصر وابن طوفان نوح، فلقد طار النسر مبلول الجناح، ودنا نهر [1] المجرة من السكارى بالشخاتير إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح، ونرجس البساتين وقد ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وفارق أحبابه من الرياحين، ولم يبق له غير القلانس[2] صديق وغير الماء حميم، والورد وقد قيل له: ما لك من آس، وغصن البان وقد قيل له: طوبى لمن عانقك ولا باس، والأسماك وقد ألجمها العرق، والقلقاس وقد شكا شكوى ابن قلاقس وأبيه من الغرق، والقصب بالجزيرة وقد شرب ماء النزز فهو نبيل الشراب، والقصب ببولاق لم ينجه من مشاهدة الغرق إلا كونه غاب، والفارسى بالبساتين وقد ترجل ووقع فأرانا[3] كيف تكسر الأقصاب، وقيل للآس: عالج جيرانك بالغيطان والناس بالناس، وبادر إلى جبر ما كسر فالحاجة تدعو المكسور فى الحالين إلى الآس، هذا وأنا مقيم بالروضة إذ زهت على سائر الرياض، وسلم جوهر حصبائها من أكثر هذه الأعراض، وإذا اعتلت[4] بالاستسقاء فهى عين الصحة كما ينسب السقم إلى العيون المراض، أو كما قال المملوك قديما من قصيدة فى بعض الأغراض:

وقائل: فى لحاظ الغيد باقية من السقام وما ضمت حضورهم

---

(١) فى الأصل: نير.

---

1 العناب: شجر شائك يشبه السدر.

2 الحشف: أردأ التمر.

3 بذى طلوح: اسم موضع، وهو واد بين الكوفة وفيد. وهو الذى قال فيه جرير:

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

(٢) فى ب: القلاقس. وفى جـ: القلافس.

(٣) فى الأصل: قاريا.

(٤) فى الأصل: علقت.

وفى النسيم، فقلت: الأمر مشتبه عليك فالزم فأنت الحاذق الفهم
قلت الصحيح ولكنى بموجبه أقول: تلك ذوات [1] برؤها السقم

قد أحاط الله بها النيل إحاطة المراشف باللمى1، وأشرقت ضياء بين زرقته فكأنما البدر فى كبد السما.

بضحى[2] خد لم يغض ماؤه ولم تخضه أعين الناس

متعطش مع[3] هذا الطوفان لرياك[4]، (متشوف وإن كنت منازل النجوم الأرضية والسمائية يا بدر لرؤياك) [5]، لكن يسلنى أنى ما نظرت إلى النيل إلا رأيتك من سائر الجهات، ولا لمحت بيوت البحر بل البحور إلا رأيتك عمارة الأبيات، ولا هممت بشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك فى الماء.

ولكن للعيان [6] لطيف معنى له طلب المعاينة الكليم

فلهم[7] إلى التمتع بهذا النيل الذى لم تر مثله العيون، والنظر إلى سائر المخلوقات لعمومه وكل فى فلك يسبحون، فليس يطيب لهذا التلميذ رؤية هذا البحر بغير رؤية شيخه، ولا يلذ له التملى برؤية هذا الفلك ما لم يشرق من وجهه وزهرته[8] ببدره ومريخه، (فما[9] هذا الإهمال)[1]، وليت شعرى تشاغلك عنا يا أديب بأى الأعمال،

---

(١) فى ب، جـ: ذات.
(٢) فى ب، جـ: يضحى.

---

1 اللمى: سمرة الشفتين. وكانت العرب تستحسنها.
(٣) ليست فى الأصل.
(٤) فى ب، جـ: لرؤياك.
(٥) ما بين القوسين ليس فى ب.
(٦) فى الأصل: للعيون.
(٧) كذا فى النسخ المخطوطة. والوجه أن تكون: فهلم.
(٨) ليست فى الأصل.
(٩) ليست فى الأصل.

يا أديب بأى الأعمال، أبالكتابة؟ فلتكن فى هذا النيل الذى [٢] هو كالظلمة بغير مثال، أو بالنثر والنظم ففى هذا البحر الذى منه تؤخذ الدرر وفيه تضرب الأمثال، ولقد قدح[٣] فيه الفكر للمملوك، كيف تصادم الأكفار[٤] رقيق (الملوك للمملوك)[٥] فإنه لم يسمع فى مملكة الإسلام، ولا درج فى عام من الأعوام، بمثل هذه الزيادة الزائدة، والجرى على خرق العادة التى لا جعل الله بها صلة ولا منها عائدة، وغاية ما وصل إليه فى (الماضى شىء من عشرين فضيق لسعته)[٦] المسالك، وأوجب المهالك، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع الطريق على السالك، وأحوج مرات[٧] إلى الاستصحاء لا أحوج[٨] لذلك، ودليل ما شمل به من الفساد، وما عامل به البلاد وأهل البلاد، ما قاله أدباء كل عصر، عندما أبيح للمسافر فى مد عرصة [٩] القصر، فمن ذلك ما قاله مولانا القاضى الفاضل:

وما هو رحمه الله إلا بحر طفح دره فلله دره، من رسالة ورود رسالته تتضمن بناء سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التى كأنها جداوله، وأنه جاد لمؤمله بنفسه التى ليس فى يده غيرها فليتق الله سائله، منها ولم يزل يجرى لمستقر له، ويظهر [١٠] شيئا فشيئا إلى أن أدرك آخره أوله، حتى إذا تكامل سمو أمواجه حالا على حال، وتنور أقاصى الأراضى من ثنية المقياس فأدناها النظر العال، فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره مآق، وليت هواه المعتل كان عدلا فحمل كل

---

(١) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٢) ليست فى ب، جـ.
(٣)ليست فى الأصل.
(٤) فى جـ: الكفار.
(٥) فى جـ: المملوك للملوك.
(٦) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٧) فى ب، جـ: مرآة.
(٨) فى الأصل: أعوج.
(٩) فى ب، جـ: عرضه.
(١٠) فى الأصل: ويضمر.

غدير ما أطاق، و طالما جرى بالصفا ولكن كدر صفاه بهذا المسعى، والمرجو من لطف الله تعالى أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصلحه خروج المرعى.

وما قاله القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر:

سقى الله ثرى تلك الألفاظ (النيلية صوبه)[1] الماطر، وينهى إليه أمر النيل الذى سر فى أوائله الأنفس بأنفس بشرى، ويقص عليه نبأه العظيم الذى ما يرينا من آية إلا وهى أكبر من الأخرى، وتصف له ما ساقه إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس صبحها يفرق الليل وتغرى[2]، فهو وإن كان خص الله البلاد المصرية بوفاده ووفائه ، وأغنى به قطرها عن القطر فلم يحتج إلى مد كافه وفائه[3]، ونزهه عن منة الغمام الذى إن جاد فلا بد من شهقة مرعده ودمعة بكائه، فقد وطئ بلادها بعسكره العجاج، وزاحم ساحتها بأفواج الأمواج، فعمل فيها بذراعه ودار عليها بخنادقه وتخللها بتراعه، وحملها على سوارى الصوارى تحت قلاعه وما هى إلا عمد قلاعه ، وزار زرابى الدور المبثوثة ، وجاس خلال الحنايا كان له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسهم من قناطره المنكوسة، وعلا زبد حركته ولولاه ظهرت فى باطنه من الأقمار والنجوم أشعتها المعكوسة ، وحمل على بركة الفيل حمل الأسود على الأبطال، وجعل المجنونة من تياره المنحدر فى السلاسل والأغلال، والمرجو من الله أن يزيل أذاه، ويعيد علينا منه ما عهدناه، فإن له الآيات الكبر، وفيه[4] العجائب والعبر ، منها وجود الوفا ، عند عدم الصفا ، وبلوغ الهرم ، إذا اتحد واضطرم ، وأمن كل فريق ، إذا قطع الطريق ، وفرح قطان الأوطان ، إذا كسر وهو كما يقال سلطان ، إلى غير ذلك من خصائصه ، وبرأته مع الزيادة من نقائصه ، طالما فتح أبواب الرحمة بتغليقه ، وفاز كل أحد برؤية مائه المعصفر بتخليقه.

---

(١) فى الأصل: المنيلة صومه.
(٢) فى الأصل: وتعرى.
(٣) ليست فى الأصل.
(٤) فى الأصل: وفى.

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدى تغمده الله بعفوه، وجمع له بين تلاوة الكوثر[1] وصفوه:

وأما النيل فقد أخذ الدار والسكان، وقال ابن الخامل كما قال ابن النبيه: الأمان الأمان، وبكى الناس عندما رأوه مقبلا عليهم بالطوفان، وانسابت أراقم غدرانه فى الإقليم فابتلعت غدرانه أراقمه، ومحا سبيله المتدفق معالمه المجهولة فاستعمل الأقلام فى إثبات معالمه، وأحاط بالقرى كالمحاصر فضرب بينها وبين السماء بسور، وأخذ الطريق على السالكين فلا يركب إلا المراكب ولا عاصم إلا البحور.

وما قاله السديد ابن[2] كاتب المرج نصرة الأقباط، وأحد عمد الشعر المشهورة بالفسطاط، فما أطيب مدائحه النبوية التى جعلها سورا بينه وبين النار، وما أعجب رثاءه جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار 1:

يا نيل يا ملك الأنهار قد شربت منك البرايا شرابا طيبا وغذا
وقد دخلت القرى تبغى منافعها فعمها بعد فرط النفع منك أذى
فقال: تذكر عنى أننى ملك وتعتدى [3] ناسيا [4] إن الملوك إذا

ومما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذى أطاعته من الآداب جوامح نثرها، وسخرت له بحور الشعر فقال له الأدب اختر من درها، فسبحان من سخر له ممتنع الكلام وهونه، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فما أشف دقيق فكره الجليل، وما أكثر ما تضحك زهر مقاطيعه على زهر مقطعات النيل، فما كان إلا مخصوصا فى الأدب بجزيل الهبات، وكلامه فى العذوبة والبلاغة يزرى[5]

---

(١) فى الأصل: الكوله.
(٢) فى الأصل: من.
(٣) فى ب : وتفتدى.
(٤) ليست فى جـ.
(٤) فى جـ: يزوى.

بالفرات وابن الفرات، وإن قيل أى أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد فقال: قول ابن نباتة:

فلا عجب للفظى حين يحلو فهذا القطر من ذاك النبات

وأما النيل فقد استوى على الأرض، فثبت فيها قدمه، وامتد فصل تياره[١] كالسيف الصقيل، فقتل الإقليم[٢]، وهذا الاحمرار إنما هو دمه:

حمرتها من دماء ما قتلت والدم فى النصل شاهد عجيب [٣]

فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه، ولا واهدا بل جبلا إلا أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتد واضطرم، وجاء من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم، وعامل البلاد بالخيلاء، وكيف لا وهو ملك جائر، أيد بالنصر قائلا: إن كنت بليت بالاحتراق فى أرضكم فأنا أقتص بأن أرمى فى بروق تيارى بشرر كالقصر.

وهذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال جميل، وكل بديع من آثار جوده يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة النيل، وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه به ذات بسطة، وكمنازل الخصب بقدومه المبارك ذات غبطة، ومتحفه [٤] بولاء وثناء، هذا يدور مع الإخلاص بفلك، وهذا يضرب من البحار بنقطة، كم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى، وكم أتى مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى، فهو جواد قد خلع الرسن 1، ساهر فى مصالح الخلق وقد ملأ الأعين وأجفانهم بالوسن، جامع لأهل

---

(٥) فى الأصل: سياره.

(٦) فى ب، جـ: المحل.

---

1 غب القطار: أى بعد المطر. فالقطار هنا جمع قطر وهو المطر.

(١) فى ب، جـ: عجب.

(٢) فى الأصل: ومنحفلا. وفى ب: ومتحفده.

---

1 الرسن: الزمام الذى يوضع على أنف الفرس وغيره.

مصر من سقياه ومرعاه ووجهه، بين الماء والخضرة والوجه الحسن، كم بات ستر مقياسه يشمل بظله الغائبين والحاضرين، وكم رفع على الوفاء راية صفراء تسر الناظرين، وبلغ بخرير التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر والسلامه.

وخلق صدر العمود، وكيف لا يخلق بشير البلاد والعباد، ودعا مصر لأخذ زخرفها، فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد. وبسط يده ببركة الماء فقيل: سلام لك من أصحاب اليمين، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فعقد لمخضوب البنان يمين، وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المخلقة على الماء فوقت وما خانت فروج الأصابع. ونادى زائد الوفاء ولكن كم حياة فى الأرض لمن ينادى، وتمت أصابع الزيادة ونمت، حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادى.

هذا وقد قربت زرابى الدور المبثوثة بالنمارق، وقال المقياس: تغطت منا الدرج فقال الرجاء وظهرت الدقائق. فهو عم المنافع، عذب المنابع، يشار فى الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع. فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن يرد الحوض المورود. وكفى أهل مصر هذه المصيبة التى إذا أصابتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. ولا ابتلاهم بما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم، فإنما يستغشى ثيابه منهم الفقراء فى المطر، ويجعل أصابعه منهم فى آذانه المؤذنون.

اللهم إنك ولى النعمة، وأولى برحمة خلقك من فيض هذه الرحمة.

وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة الذى كان أعرب من زرقاء اليمامة، وأعجب إذا ركب بغلته بزرزوره من أبى دلامة، والأديب الذى كان حجة العرب، والناثر الذى كان بنسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشعر صناجة الأدب، والناظم الذى كان إذا أنشد مقاطيعه فى التشبيب فاق على المواصيل ذوات الطرب، والصديق الذى كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصوفية الذى لا عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة، أسكنه الله فسيح الجنان، وخص ذلك الوجه

الجميل بالعارض الهتان 1.

من مقامته الزعفرانية:

عن أبى الرياش فاعتنقته [1] لدين الإسلام، وقلت ما وراءك يا عصام، فقد بلغنا أن النيل تزايد دفعه، و أدى إلى الضرر نفعه. فقال: خذ العفو، ولا تكدر بذكر النيل الصفو. فقد امتزج بالمعصرات ثجاجه، وأعيا طبيب الغيطان علاجه.

وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

قلت: فما فعل النغير [2] بجزيرة الطير ؟ قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصياح، ولا ساع يسعى برجل ولاطائر يطير بجناح. إلا اتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء. فأفاق الحمام الحمام فى المروج، وترك أرضها كسماء ما لها من فروج، وتلا على الحمام: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ** ﴾ 1، وكم فى سماء مائها من نسر واقع، وبومة تصفر على ديارها البلاقع. ومنهل فى الغراب ميت، سقيت منه القوم وسقيت.

قلت: فبمصرنا[3] ؟ قال: زحف عليها بعسكره الجرار، ونفط مائه الطيار.

قلت: فالجيزة ؟

قال: طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر. ووقع بها القصب من قامته حين علا عليه الماء وتكسر. فأصبح بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب، ناصل الخضاب، غارقا فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب. وقطع طريق زاويتها

---

(١) فى ب: فاعنقته. وفى جـ: فاعتنقه.

---

1 الهتان: المطر المتتابع.

(١) فى جـ: النفير. والنغير: تصغير النغر، وهو فرخ العصفور.

(٢) فى جـ: فمصر قال.

---

1 سورة النساء، الآية ٧٨.

على من بها من المنقطعين والفقراء، وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء. فتنادوا مصبحين. ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين. وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص، وغشيهم من اليم ما غشيهم فنادوا ولات حين مناص. وخر عليهم السقف من فوقهم فهدت قواهم، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

قلت: فالروضة ؟

قال: أحاط بها إحاطة الكمام بزهره، والكأس بحباب خمره. فكأنه فيها بساط أخضر. وكأنه فيها طراز مذهب. فلم يكن له فيها بدفع أصابعه يدان، و كم أنشد مرجها حين مرج البحرين يلتقيان.

أعينى كفا عن فؤادى فإنه من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

قلت: فدار النحاس ؟

قال: أنحس حالها، وأفسد ما عليها وما لها وماءها. فدخل من حمامها الظهر، وقطع الطريق بالجامع الظهر. فألحق مجاز بابه بالحقيقة، ورقى منه على درجتين فى دقيقة. كم اغترف ما جاوزه [1] من الغرف غرفا، وأطلق من مائه الأحمر النار بموردة الحلفا.

قلت: فالخليج الحاكمى ؟

قال: خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية، ومرق من قسى قناطره كالسهم من الرمية.

قلت: فالمنشأة؟

قال: أصبحت للبحر مقرة، بعد أن كانت للعيون قرة. وقيل لمنشيها، أنى يحيى هذه الله بعد موتها. قال: يحييها الذى أنشأها أول مرة. قد مال على ما فيها من شون الغلال كل الميل، وتركها تتلو بفمها الذى شفتاه مصراع بابها يا أبانا منع منا الكيل.

قلت: فجزيرة أروى ؟

---

(٢) فى الأصل: جاوره.

قال: قد أفسد جل ثمارها، وأتى على مقاثيها، فلم يدع شيئا من رديها وخيارها، أخلق ديباجة روضها الأنف، وترك قلقاسها فى الجروف على شفا جرف.

بعينى رأيت الماء يوما وقد جرى عن رأسه من شاهق فتكسرا

طالما [1] تضرع بأصابعه إلى ربه، ولطم برءوسه الحيطان مما جرى من الماء على قلبه. (وتمثلوا بقول الأول) [2]:

وإن سألوك يوم البيـ ـن عن قلبى وما قاسى
فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى

لم يفده تحصنه من أوراقه بالدرق والستائر، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن السلطان ماء جائر.

قلت: فحكر ابن الأثير؟

قال: لم يبق منه إلا الثلث والثلث كثير. قد أخمل من دوره خمائلها، وجعل أعاليها أسافلها. فكم دار أعدم صباحها قراره، ونادى فى عرصاتها المتداعية: إياك أعنى واسمعى يا جاره، فأصبحت بعد نفعها قليلة الجدا، مستولية عليها يد الردى، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحت فى يومها أبكت غدا.

قلت: فبولاق ؟

قال: إملاق، قد التفت بها من الزلق الساق بالساق. فأتى منها من النوتية على الصغير والكبير، ومن المراكب وتمرها [3] على النقير[4] والقطمير. هذا بعد ترك جامع الخطيرى1 على خطر، وحيطانه يانعة الثمر، قد دنا قطافها وحان تلافها، فكأنى به وقد منع رفده، وتلا على محرابه سورة السجدة.

---

(١) فى ب: والماء. وفى جـ: فالماء.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٣) فى الأصل: ونموها.

(٤) فى جـ: الشعير.

---

1 جامع الخطيرى: أنشىء زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ناحية بولاق.

قلت: فجزيرة الفيل ؟

قال: اقتلع أشجارها بشروشها، وترك سواقيها خاوية على عروشها.

قلت: فالتاج والسبع وجوه؟

قال: هجم على حرمها، وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها. قبل ثرى الموتى فى التخوم، وعنت الوجوه للحى القيوم.

قلت: فما الحيلة ؟

قال: ترك الحيلة.

دعها سماوية تجرى على قدر لا تفسدنها برأى منك أرضى

طال الكتاب، وخرجنا عن فصل الخطاب. ولربما ساق المحرث بعض ما ليس الفدى إليه بالمحتاج. وكأنى بقائل يقول أليس من الكبر أن يستخدم هذا فى رسالته ملوك الكلام، ومن الحمق أن يحلى عرائس[1] أفكاره بما للناس من حلى النثار والنظام؟ فأقول: مسلم إن كل (ما أوردته درر وجواهر، وعقود كزهر الربيع عيون وجوهها النواظر)[2] نواضر.

ولكنها ههنا أمثل، وجمع شملها على هذا العروس أجمل، وفى عنق الحسناء مستحسن العقد، وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب. فنقول لا عيب على الفقيرة إذا تجملت بحلى الغنية، ولا عيب على الجوهرى إذا نظم سلكا كانت درره على الطرق مرمية. ونرجع إلى ما ولده الفكر، من عجب البحر، وما ظهر من دفع المملوك لأمثالها عن جريها إذ غاياتها قصور القهر. فأقول: إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم فى يوم العرض. وكل ذلك وما وصل إلى الارتفاع، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب[3] الذارع، وعلى هذا القياس إنما

---

(١) فى الأصل، ب: عن أنس.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(١) فى الأصل: فقريب.

دفع ضرره [1]، وحمل فى البلاد أثره، وحسن فى السماء خبره، وفى الأرض مخبره. السرى الذى اهتمامه بالمعروف معروف، وسيف الدين الذى يسهر فى مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف. برقوق أتابك العساكر، والملك الذى هو بالإسلام مؤيد[2] وله منصور وناصر. حصن سائر الكرى بالجسور، وركز على أفواه البحر والخلج الأمراء كما تركز المجاهدون على الثغور. وقابل البحر من سطواته بما لا له به قبل، ورد دفعه بكل دفع من الرأى والتدبير يغنى عن البيض 1 والأسل 2. وحاربه بجيش عزم إلى أن ولى هاربا من التراع والقناطر، وجاهد بجنده الذين ركزهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر، وحصره بالتضييق عليه كما تحصر البرك والتراع، وغل يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس ذراعا بذراع. فما هو إلا أن تضاءل نيران سطواته واحترق، وذل خاضعا وكفى به تضرعا بالأصابع وتوسلا بالملق 3. وأطاع لما لم ينجه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق، على أنه تطاول ليضاهى بأصابعه جود أياديه فقصر وتجسر، وركب خيل خيلائه ليحاكى بأسه فوقع من جسور عجبه وتقنطر، وسمت نفسه كبرا لأن يبلغ قدره، فقيل يا بحر هذا خليفة الله فى أرضه والله أكبر.

نعم رأى البحر الخضم ندى يديه يفيض على الورى منه بحار
فظل البحر ملتطما وأضحى على الحالين ليس له قرار

فلو زدت فى أيام غيره من الملوك المترفين، وممن يؤثر ملاذ نفسه على مصالح المسلمين. كنت أيها الملك بلغت قصدك، وفعلت فى أبناء مصر جهدك. وكنت من الملوك الذين إذا دخلوا قرية أشعلوا فيها الأهلة، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها

---

(٢) فى الأصل: ضرورة.
(٣) ليست فى الأصل، ب.

---

1 البيض: جمع بيضة وهى الخوذة.
2 الأسل: الرماح والنبل.
3 الملق: التضرع والدعاء.

أذلة. ولكن هب قبولك إدبارا، ولاقت رحيك إعصارا. فليس لك به قبل، والسيل أدرى بالجبل. فما لك سبيل إلا بلاده، ولا طاقة بإياب الخير على عناده. فإنه خادم الحرمين، والمدعو له حتى فى مواقف الحرب بين الصفين[1]. حامى السواحل والثغور، والمخدوم بأيادى السحائب وأصابع البحور، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر فلست المنصور. والرأى أن تقف مستغفرا، وتقول معتذرا. لم أفرط بالزيادة فى أيامه، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار حوافر خيله ومواطىء أقدامه. وتتبع نواهيه وتمتثل أوامره، وتدعو له كالرعايا بطول البقاء فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة، ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع، أن يرينا كوكب نوئك [2] عن قريب راجع، وكما أغنانا بزيارتك عن الاستسقاء، لا تحوجنا فى نقصك إلى الاستصحاء، إنه قريب مجيب الدعاء.

وقال البدر بن الصاحب:

قد قلت لما أن تزايد نيلنا أوكاد ينزل دروة المقياس
يا نيل يا ملك المياه بأسرها ما فى وقوفك ساعة من باس

وقال أيضا:

طغى النيل عن حد عاداته وعلمنا الجهل فى العالمين
فصرنا نكشف عوراتنا وكنا نخوض مع الخائضين

وفى سنة خمس وثمانين وسبعمائة أقر (ماء النيل) [3] فكان ثمانية أذرع سواء، وجاء أول مسرى وهو على اثنى عشر ذراعا وأربع اصابع، فزاد فى رابع مسرى أربعين

(١) فى الأصل، جـ: الظنين.
(٢) فى ب: نورك.
(٣) فى ب: قاع النيل. وفى جـ: قاع المقياس.

أصبعا، ومن الغد أربعا وثلاثين، ثم أوفى اليوم الذى يليه، وانتهت زيادته إلى أصابع من واحد وعشرين ذراعا، فغرقت مواضع عديدة وتهدمت عدة دور.

وفى سنة ست وثمانين كان القاع[1] ثمانية أذرع وأربع أصابع.

وفى سنة إحدى وتسعين قال المقريزى: انتهت زيادة النيل إلى تسعة عشر ذارعا وثمانية عشر أصبعا، ولم يسمع مثل ذلك إلا فى النادر، وثبت إلى تاسع بابه. (وفى سنة ثلاث وتسعين أوفى ثالث مسرى وانتهت إلى عشرين من عشرين.

وفى سنة أربع وتسعين جاء القاع سبعة أذرع وعشرين أصبعا، وفى سنة سبع وتسعين)[2] بلغ ثمانية أصابع من عشرين ذراعا وثبت إلى رابع بابه فكان طوفانا. وفى سنة ثمان وتسعين ثبت النيل إلى أثناء هاتور على ثمانية عشر أصبعا من تسعة عشر ذراعا.

وفى سنة ثلاث وثمانمائة فى يوم الخميس سلخ ذى الحجة زاد النيل ثمانية وأربعين أصبعا وتأخر عليه من الوفاء ستة عشرة أصبعا أوفاها بالليل.

وفى سنة ست وثمانمائة توقف النيل، فانتهى فى ثالث أيام النسىء إلى اثنين وعشرين أصبعا من الذراع السادس عشر، ثم نقص ولم يوف فخرج القضاة والعلماء إلى الجامع الأزهر ودعوا وتضرعوا، وكسر أول توت وقد بقى من الوفاء أربع أصابع ووقع الغلاء.

وفى أول سنة سبع احترق النيل احتراقا غير ما يعهد حتى صار الناس يخوضون من بر القاهرة إلى بر الجيزة وجاء القاع ذراعا واحدا وعشر أصابع.

وفى سنة اثنتى عشرة قال المقريزى: من النوادر أوفى النيل وفتح الخليج فى أول يوم من مسرى، وبلغ من الزيادة ما يقارب اثنين وعشرين ذراعا وثبت إلى نصف هاتور.

---

(١) فى الأصل: القائم.

(٢) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

وفى سنة ثلاث وعشرين توقف النيل عن الزيادة وتمادى على ذلك أياما، ونودى فى الناس بصيام ثلاثة أيام فصاموا، وخرج الناس للاستسقاء بالصحراء بالقرب من قبة النصر، فصلى بهم قاضى القضاة جلال الدين البلقينى وخطب، وحضر السلطان المؤيد راكبا (بمفرده على فرس)[1]، وقد تزيا بزى أهل التصوف، فاعتم بمئزر صوف لطيف ولبس ثوب صوف أبيض، وعلى عنقه شملة صوف مرخاة[2]، وجلس على الأرض من غير بساط ولا سجادة، وباشر فى سجوده التراب بجبهته، وبكى وانتحب.

قال المقريزى: وفى مشاهدة جبار الأرض[3] على ما وصفت ما تخشع منه القلوب وترجى رحمة جبار السماء.

قلت: أشار المقريزى بذلك إلى ما ورد فى الأثر: إذا ذل جبار الأرض رحم جبار السماء. وقد سمعت شيخنا قاضى القضاة علم الدين البلقينى يحكى هذا المجلس ويذكر أن أخاه قاضى القضاة جلال الدين قال للمؤيد لما رآه فى تلك الحالة: بتواضعك ترحم. ونقلت من خط شيخنا المذكور قال: نقلت من خط شيخنا الأخ جلال الدين ما نصه:

الحمد لله، اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، لما كان يوم الجمعة ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة حضرنا مجلس السلطان الملك المؤيد نصره الله تعالى لما توقف النيل عن الزيادة فى أوانها سبعة ايام، ورسم بإشهار النداء بالصوم ثلاثة أيام والخروج فى الرابع، فلما كان يوم السبت رابع عشرى جمادى الآخرة نودى بزيادة أصبع، وفى يوم الأحد بزيادة أصبعين فبرز مرسومه على لسان الشيخ تقى الدين بن حجة الحنفى بالخروج يوم الاثنين للصلاة شكرا. وقد قال أصحابنا: لو تأهبوا للخروج للصلاة فسقوا قبلها خرجوا للشكر

---

(١) فى الأصل: على راكب بمفرد.

(٢) ليست فى ب، جـ.

(٣) فى الأصل، جـ: السماء. والصحيح ما أثبتناه بدلالة السياق.

والدعاء ويصلون على الصحيح، وأجرى الوجهان فيما إذا لم تنقطع المياه وأرادوا أن يصلوا للاستزادة، والأصح الاستحباب، فحينئذ هذا الخروج يشتمل على طلب الزيادة والشكر، وقد قال الأصحاب إن خطبة الاستسقاء يبدل فيها التكبير بالاستغفار، ووجدنا النص فى الأم يقتضى أنه يكبر فيها كالعيد فجمعنا فى هذه الخطبة بين الأمرين.

الخطبة الأولى

أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله.

أستغفر الله أستغفرالله أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا. ويذكر خطبة العيد التى فى الحمدلات بكمالها ثم يقال: أيها الناس ﴿**ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا**﴾1، إلى قوله ﴿**سُبُلًا فِجَاجًا**﴾2 .

فبالله عليكم اشكروا نعمة الله عليكم، وأحسنوا كما أحسن الله إليكم، واذكروا نعمة [1] الله إن كنتم إياه تعبدون واقصدوا باب الكريم فكل الخلق له يقصدون، ولا تقابلوا النعم بالعصيان، وتوبوا إلى ربكم واسألوه الغفران، وقد وعدكم ربكم[2] على شكر الزيادة من فضله الوافر الكامل البسيط المديد، وأوعد على مخالفة ذلك بالعقوبة وهو الغنى الحميد، فقال تعالى ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ** ﴾ 3، واعلموا [3] أن النعم وحشية

(١) ليست فى ب، جـ.
(٢) فى ب، جـ: مولاكم.
(٣) فى ب، جـ: واعلم.

1 سورة نوح، الآيات ١٠- ١٢.
2 السورة نفسها، الآية ٢٠.
3 سورة إبراهيم، الآية ٧.

فبالشكر قيدوها، والنفوس نافرة فبالصبر عودوها، وأثواب التوبة قد خلقت فبالاستغفار جددوها، وأبواب المعاصى قد فتحت فبالطاعة أوصدوها[1]، ومفاتيح الجنان قد تشعثت فبالإصلاح أرفدوها (ونعم ربكم عليكم كثيرة فعلى أنفسكم عددوها عدد[2] الأنفاس فى اليوم والليلة أربعة وعشرون ألفا) [3] وبكل نفس نعمتان، ومن يقوم بشكر ذلك حقا صرفا، وفى الجسد ثلاثمائة وستون مفصلا ومثلها من العظام، وفى كل واحد منها [4] ما لا يحصى من النعم الجسام، وفى استدارة الرغيف ثلاثمائة وستون نعمة فى السموات والأرض وما بينهما من الأعراض والأجسام، من الأملاك والأفلاك والرياح والمعادن ومن يطيق على ذلك الشكر التام، ويخصكم فى[5] جريان النيل الذى يجىء فى أيام مألوفة، وينقص فى أيام معروفة، وفى ذلك ما لا يحصى من الطول والإنعام، ونعمة الإيمان والعلم والنفس أعظم الإكرام[6]، فاشكروا مولاكم واعلموا أن الشكر نعمة جديدة، فمن شكر فقد استوجب بوعده الصادق مزيده، والصلوات الخمس فحافظوا عليها فهى النور والنجاة والبرهان يوم القيامة، وتاركها له الخيبة والحسرة والندامة، والزكاة فلا تكونوا لها من المانعين، فتكونوا من الخاسرين، ولم يمنع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء وذلك هو البلاء المبين، وقد نهاكم مولاكم عن أمور فاجتنبوها، الدماء فاحذروها، وإياكم وقتل النفس المحرمة فإنه من الأمور الخطيرة العظيمة، قال تعالى ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾ 1. وفى الحديث: «**من أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة**

---

(١) فى الأصل: أرصدوها.

(٢) ليست فى الأصل.

(٣) وقع اضطراب وتكرار فى هذه العبارة بكل من النسختين ب، جـ.

(٤) ليست فى الأصل.

(٥) ليست فى الأصل.

(٦) فى الأصل: الإيمان. وفى جـ: إكرام.

---

1 سورة النساء الآية ٩٣.

جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله » 1. ومن الأمور التى جاءت الشريعة بأنها من الكبائر ولا تقربوها، الخمر أم الخبائث فلا تشربوها، فقد أخطأ شاربها نجاحا، وحصل آثاما وترك فلاحا، وقد جاء فى الحديث: « **من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين صباحا** » 2، وفى الحديث الحسن، « **مدمن الخمر كعابد وثن** » 3، ولا تنقصوا المكيال والميزان فلم ينقص قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، ولا تنقضوا عهد الله ورسوله فما نقض قوم العهد إلا سلطت عليهم الأعداء بالتمكين، وأكثروا من الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار،

وسيد الاستغفار «**اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك على، وأبوء بذنبى، فاغفر لى، فإنه** [1] **لا يغفر الذنوب إلا أنت** » 4. إن أحسن ما تلاه التالون وعمل به العاملون كلام من يقول للشىء كن فيكون، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ **وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾ 5 . آمركم عباد الله وإياى (بالطاعة، بالتوبة) [2]

---

(١) فى الأصل: إنه.

(٢) فى ب: بالتوبة والطاعة. وفى العبارة كلها اضطراب بالنسخة جـ.

---

1 أخرجه أبو يعلى فى مسنده (١٠/ ٣٠٦) وابن ماجة فى سننه (٢/ ٨٧٤) والبيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٢٢) كلهم عن أبى هريرة. وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٣٤٦) عن ابن عمر. قال ابن حجر فى تلخيص الحبير (٤ / ١٤): فى إسناده يزيد عن زياد، وهو ضعيف. بالغ ابن الجوزى فذكره فى الموضوعات.

2 أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٧) والدارمى فى سننه (٢/ ١٥٢) وابن خزيمة فى صحيحه (٢/ ٦٨) وابن حبان فى صحيحه (١٢/ ١٧٩) وابن ماجة فى سننه (٢/ ١١٢٠) والحاكم فى المستدرك (١/ ٣٨٨) كلهم عن عبد الله بن عمرو. وقال الحاكم: وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبى.
وأخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (٩/ ٢٣٥) والترمذى فى سننه (٤/ ٢٩٠) كلاهما عن عبد الله بن عمر. وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

3 أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٢) والطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ٤٥) والبزار فى مسنده (٦/ ٣٦٦) وابن حبان فى صحيحه (١٢/ ١٦٦) كلهم عن ابن عباس. قال المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٧) رجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه ابن ماجة فى سننه (٢/ ١١٢٠) عن أبى هريرة.

4 أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/ ٢٣٢٣) عن شداد بن أوس.

5 سورة النور، الآية ٣١.

والتقوى فذلك ملاك الأمور، وعليه جميع مصالح الدارين تدور، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المؤمنين، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية (١)

يستغفر الله ويكبر كالأولى، ثم الحمد لله الذى تطول وأنعم، وأحسن وتفضل وتكرم، أحمده حمدا لائقا بجلال حضرة قدسه، وأشكره ولا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها فى دنياه وآخرته ورمسه، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث لكافة الخلق من جنه وإنسه، ﷺ وعلى آله وصحبه وشرف وكرم.

أيها الناس، أكثروا من الاستغفار والتضرع لمولاكم فهو الرحيم الغفار، واسألوه من فضله الزيادة، وأقبلوا بقلوبكم على الطاعة والعبادة.

ثم يحول وجهه إلى القبلة ويقول: اللهم فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها أنت ترحمنا فارحمنا رحمة من عندك تغننا بها عن رحمة من سواك، اللهم بقدرتك أجر نيلنا وبلغ به المنافع، وعم به جميع الأراضى والمزراع، اللهم وفر من الجنة مزاجه، وأكثر به البركة وادفع به الحاجة، اللهم أنزل علينا من بركات السماء وأنبت لنا (٢) من بركات الأرض، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، اللهم بالعباد والبلاد من الاحتياج إليه ما لا يعلمه إلا أنت، اللهم ارحم ضعفنا وقلة حيلتنا وعجزنا، ولا تؤاخذنا بما جنته أيدينا، اللهم قد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا.

ثم يلتفت إلى الناس ويقول: أيها الناس أوصيكم وإياى بتقوى الله وطاعته إلى آخر الميعاد، ثم يقول: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ 1 الآية

---

(١) فى الأصل: الثالثة. ولعله سبق قلم.

(٢) فى الأصل، ب: علينا.

---

1 سورة الحشر الآية ١٠.

﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ ﴾ 1 الآية ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ 2، ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا ﴾ 3 الآية، اللهم إنا ظلمنا، أنفسنا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم. أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه.

قال المقريزى: فنودى من الغد على النيل بزيادة اثنى عشر أصبعا بعد ما رد النقص وهو قريب من سبع وعشرين أصبعا فتباشر الناس باستجابة دعائهم ورجوا رحمة الله تعالى، ثم استمر فى الزيادة إلى أن أوفى وبلغ ثمانية عشر ذراعا وثلاثة أصابع.

وفى سنة خمس وعشرين أوفى النيل فى تاسع عشرى أبيب وتغنت العامة: النيل أوفى فى أبيب، خش يا حبيب، وفى هذه السنة نودى عليه (فى يوم) (١) بزيادة خمس أصابع فكثر، وتعجب الناس لذلك ثم ازدادوا تعجبا لوفائه قبل مسرى وانتهى إلى أصبع من (واحد وعشرين) (٢) ذراعا.

وفى سنة ست وعشرين جاء القاع ثمانى أذرع وعشر أصابع. قال المقريزى: وهذا مما يندر مثله.

وفى سنة ثلاثين انتهت زيادة النيل إلى سبعة عشر ذراعا وأصبعين فهبط بسرعة فكثر شراقى الأرض.

وفى سنة ثلاث وثلاثين وجد بالنيل كثير من السمك والتماسيح حتى طفت على وجه الماء ميتة، وصيدت سمكة فإذا هى كأنما صبغت بدم من شدة حمرتها وكان ذاك عام الطاعون الكبير.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى الأصل: واحد من عشرين.

---

1 سورة نوح الآية ٢٨.

2 سورة إبراهيم الآية ٤١.

3 سورة آل عمران، الآية ١٤٧.

وفى سنة أربع وثلاثين أوفى النيل فى تاسع عشرى أبيب. قال المقريزى: وهو من النوادر، وقد أدركنا ذلك وقع مرتين.

وفى سنة سبع وثلاثين أوفى النيل مرتين فى العام، فإنه أوفى أوله فى ثانى المحرم الموافق لسادس عشرى مسرى، وأوفى فى آخره فى رابع عشرى ذى الحجة الموافق السابع مسرى.

قال المقريزى: وهى نادرة قال: أذكر أنى أدركت مثل ذلك.

وفى سنة ثمان وثلاثين زاد النيل قبل أوانه، فما جاء وقت الزيادة حتى زاد أربعة أذرع وجاء القاع أحد عشر ذراعا، وهذا مما يندر وقوعه ولم ندرك مثله، وانتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وعشرين أصبعا.

وفى سنة ثلاث وأربعين نودى على النيل فى أول مسرى بزيادة خمسين أصبعا وأوفى سادس مسرى وانتهت زيادته إلى عشرين ذراعا وعشر أصابع.

وفى سنة أربع وأربعين أوفى فى رابع مسرى وانتهت زيادته إلى إحدى وعشرين أصبعا من واحد وعشرين ذراعا.

وفى سنة أربع وخمسين لم يوف النيل وقد كسر الخليج، وقد بقى عليه من الوفاء أصبع فهبط وشرقت الأراضى ووقع الغلاء.

وقال الأديب شمس الدين النواجى فى ذلك:

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا ... ودب القحط فينا من أبيب

ولم [1] أضرع لمخلوق لأنى ... رأيت الله ألطف من (أبى بى) [2]

وقال أيضا:

وقالوا النيل ما أوفى بمسرى ... ولا الناروز جاء [3] ولا الصليبى [4]

وشهر أبيب ما وافى برحمى ... فقلت الله أرحم من أبى بى

---

(٢) جاء مكان ما بين القوسين فى ب، جـ: أبيب.

(١) فى جـ: وكم. وهو تصحيف يقلب المعنى.

(٣) فى ب، جـ: جار.

(٤) فى الأصل: الصليب.

وقال أيضا:

قالوا وهى النيل عن قواه فما اسـ ـتطاع يوفي [1] لعظم ما نابه
عساه فى بابه يصب لنا فقلت ذا النيل ماله بابه

وقال الشهاب الحجازى:

مذ بادروا بفتح سد قبل الوفا كسرنا
وأبصرالناس كسرا من ذاك حسا ومعنى

وقال النواجى أيضا رحمه الله تعالى:

لرب العلا نشكو أذى القحط والغلا وما مسنا منه [2] من الضر والبلا
ونسأله من البأس واليأس والرجا رخاء [3] فقد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخص الأرواح لما تسعرت بمور1 ضرام فى حميم الحشا غلا
ودارت (رحى الجدب) [4] فى كل بلدة وما تركت للخصب فى مصر منزلا
فلا بر يرجى منه بر ببره ولا بحر رى طاب عذبا وسلسلا
ولا عين أرض قد بكت فتفجرت علينا ولا دمع من الغيث أهملا
ولم يتخلق بالوفا نيل مصرنا ولا ذيل ستر بالهنا راح مسبلا
ومذ غاض مقياس المنى ضاق عيشنا وأمحل ربع الأنس والصبرما حلا
به الأغنيا يشكون فقرا وفاقة فكيف بمن أمسى معيلا ومعولا

---

(١) ليست فى الأصل.
(٢) فى ب، جـ: فيه.
(٣) فى الأصل: رجا.
(٤) فى الأصل: رجا الجذب. وفى جـ: رجا الجدب.

---

1 بمور: المور: الاضطراب.

حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى
فما مملق إلا إلى بابك التجى ولا معدم إلا عليك توكلا
وسقيا ورعيا للمواشى فقد بدت كلاها وكل السير فى طلب الكلا [١]
وإن تاه قوم بالغلا [٢] وترفعوا علينا ومالوا للقطيعة والقلى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى لهم أبدا فضلا علينا ولا ولا
إليك توسلنا بجاه نبينا فما خاب من أمسى به متوسلا

وقال أيضا فى سنة خمس وخمسين وقد من الله بوفاء النيل:

الحمد لله وافى نيلنا ووفي وبل غلة قلب كان قد نشفا
وعاد ماء حياة الزرع منهمرا إلى مجاريه فياضابها كلفا
نعم جرى الماء فى عود الحياة ودب البرء [٣] فى السقم ممزوجا بكل شفا
من الجنان هما ينبوع كوثره يا طيب عنصره ريا ومرتشفا
جرى على أجمل العادات منبسطا وما [٤] توقف يوما لا ولا وقفا [٥]
كأنه ملك وافى لينظر في أمر الرعية إن ضرا رأى كشفا
حاكت لجوشنه 1 كف الصبا زردا 2 بجيش موج على جيش[٦] الغلا زحفا
طاب البلاد وجاب الأرض مقتفيا آثاره يتلافى منه ما تلفا

(١) فى الأصل: الحلى.
(٢) فى ب، جـ: بالغنا.
(٣) فى الأصل: البوء.
(٤) فى الأصل: ولا.
(٥) فى جـ: توقفا.
(٦) فى ب، جـ: أرض.

1 لجوشنه: أى لصدره.
2 زردا: الزرد: الدرع.

كأنما يتحرى فى عهده مواقع السقى أنى سار أو عكفا
كم منية من صعيد الأرض يممها بالمسح من وجهها القبلى ما انكشفا
باهى بها الفلك فى أسنى مطالعها جواريا ذات ألواح تلت صحفا
وبحر يوسف أبدى حسن منظره بالصب فى ألف يوم قد صفا وصفا
ومنذ أهدى بحلوان حلاوته راقت ببال مشوق للقا دنفا
ما شاب مفرقه الميمون من هرم ولا أبو الهول منه قلبه رجفا
بل جاء ركضا وسيم الوجه يسبح في تياره وعلى التكرور كم رأفا
قد زيد فى حرثه فانساب منطلقا فدانه وسقى ماء الحياة وشفي
وافى بمفرده من قوص منحدرا فى كلة1وبأرزاق الورى قذفا
مخلقا لعمود الصبح قد ضرر الـ فسطاط حين رأى المقياس وانعطفا
دقت بشائره فى مصر وانتشرت راياته بقلوع آذنت بوفا
وافى يشار إليه بالأصابع بل بفيض فضل أياد عهدها سلفا
أرخى على الناس ستر العدل فانتشروا فى روضة من شذاها أصبحت أنفا
صيغت خلاخيل للأشجار منه ومن قلائد الطلع حلى جيدها تحفا
واستوحش النبت حتى الأرض فى حلل تحلى ومن قرطه قد ألبست شنفا 2
تحكى السماء وتحكيه حلى وعلا وأنجما وبروجاكم حوت شرفا
كلاهما جرت الأفلاك[1] فيه وقد حفت بحافته الأملاك فائتلفا
كأنما هو مرآة لها جليت بالصقل أو هى مرآة صفت وصفا

(١) فى الأصل: الأملاك.

1 كلة: أى: قبة كالتى تبنى على القبور.
2 شنفا: الشنف جمع شنف، وهو القرط.

سقيا لديه ورعيا كم أمد قرى منصورة بجنود للندا خلقا
من كل فارس خيل نال منزلة يهدى لفارس كور بحرها طرفا
على بساط الربى (بانت محلته) [1] وثغر دمياط من أرياقه 1 رشفا
كأن حمرة[2] لون منه قد صبغت بفوة أو دم للمحل قد نزفا
حدث عن البحر يا هذا ولا عجب يعمر الأرض إذ يستهدم الجرفا 2
فى مصر شمت بلاد الرى عامرة وباسمه جبل الريان قد هتفا
أروى الغريبين عنه فى زيادته والنقص مختلفا منها ومؤتلفا [3]
إن[4] زاد غاضت مياه الأرض قاطبة أو غاض زادت وكل قدره عرفا
وكم تكدر يوما فى زيادته فراق عيش البرايا عنده وصفا
قد رق طبعا فما أحلى زوائده فى الذوق لو مر فى قلب الصفا لطفا
وكم تملق حتى خاض واردهم فيه وقابل منه رقة بجفا
فما ابن ماء سماء وابن زائدة وقاتل المحل جودا أو أبو دلفا3
إلا كقطرة ماء منه قد قطرت بل كلهم من ندى راحاته اغترفا
لو لم يكن فى سراه من أقاصى أسـ ـوان وقوص إلى أن عاد وانصرفا

---

(١) فى الأصل: كانت محلقة..
(٢) فى الأصل: خمرة.
(٣) فى ب، جـ: وهو ما تلفا.
(٤) فى الأصل: إذ.

---

1 أرياقه: الأرياق جمع ريق.
2 الجرفا: شق الوادى إذا حفر الماء فى أسفله.
3 أبو دلف: هو القاسم بن عيسى بن معقل بن إدريس العجلى، سيد قومه، أمير أخذ عنه الأدباء الفضلاء والشعراء المجودون، وكان له صنعة فى الغناء.

إلا ليروى آثار النبى ومن روى الورى بغوادى1 كفه لكفي
(محمد صاحب الحوض الروى إذا ما جاءه الوارد الظمآن ملتهفا) [1]
من نال منه شرابا فى القيامة لم يظمأ وصادف ريا فيه كل شفا
من نيل منهله كم راح مغترفا ظام وبالفضل منه جاء معترفا
أغاثنا بعد كسر نالنا فرفا[2] بالجبر ما ارتكب الخزان واقترفا
وجادنا منه غيث صيب غدق وزاد وكفا2 فقلنا حسبنا وكفي
يا منزل الغيث فضلا بعد ما قنطوا وناشر الرحمة العظمى بحسن وفا
ارفع بحقك عن مصر الغلا وقنا صعيد نار بها ربع الرخا عفا
لبيك لبيك داركنا بمغفرة وجد حنانيك وارحم أمة ضعفا
وصل أزكى صلاة والسلام على نبيك المصطفى الراقى الذرا [3] شرفا
ما انهل فى الجدب غيث قد طفا فجنى أيانع الزهر كف الخصب واقتطفا

وفى سنة سبع وستين توقف النيل أياما عن الزيادة ثم زاد وكان صادف ولاية قاض حنفى جديد فقال صاحبنا الشهاب المنصورى فى ذلك:

بقاضى القضا استبشرت مصر وانتضت على المحل ماضى نيلها المتتابع
ومذ قيل من أولى[4] بمرتبة القضا على مذهب النعمان من كل بارع
أشار إليها بالأيادى مليكها وأومى إلينا نيلها بالأصابع

---

(١) هذا البيت ليس فى ب، جـ.
(٢) فى ب: فرقا. يقال رفا الثوب ونحوه رفوا، أى: أصلحه وضم بعضه إلى بعض.
(٣) فى ب: الرزى. وفى جـ: الذى.
(٤) فى ب، جـ: ولى.

---

1 بغوادى: الغوادى جمع غادية، وهى السحابة تنشأ فتمطر غدوة أول النهار.
2 وكفا: الوكف: سيلان الماء وغيره قليلا قليلا.

وقال أيضا:

وبحرين جاراهما نيلنا وقاضى القضاة بنفع البلاد
لهذا أصابع مخصوصة وذا عمت الناس منه الأيادى

وفى سنة ثلاث وثمانين أوفى النيل فى تاسع عشرى أبيب.

وفى سنة تسع وثمانين انتهت زيادته إلى اثنين وعشرين أصبعا من ثمانية عشر ذراعا (وهبط بسرعة فى أواخر مسرى وكان مبدأ الغلاء.

وفى سنة تسعين انتهت زيادته إلى سبعة عشر ذراعا) [1] فاشتد الغلاء.

وفى سنة ثلاث وتسعين زاد قبل أوان زيادته نحو ذراعين وجاء القاع ثمانية أذرع وعشرين أصبعا.

وفى سنة أربع وتسعين أوفى النيل فى آخر يوم من شعبان وكسر أول يوم من رمضان ووافق سادس مسرى.

وفى سنة خمس وتسعين نودى عليه فى ثالث مسرى بثلاث وثلاثين أصبعا، وذلك من النوادر، ثم أوفى فى رابع مسرى الموافق لعاشر رمضان.

وفى سنة ست وتسعين أوفى يوم عيد الفطر وكسر ثانى شوال فتوالى يوما عيد، وقد قلت أنا فى [2] هذا الوفاء:

يوم عيد الفطر وافى بهناء وسعاده
ختم الصوم وأوفي النيل فى أحسن عاده
يا له من يوم عيد فيه حسنى وزياده

وفى سنة سبع وتسعين أوفى فى منتصف مسرى [وزاد إلى أن بلغ سبعة عشر

---

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) ليست فى الأصل.

obeikandl.com

أصبعا من ثمانية عشر ذراعا (فى ثانى عشرى مسرى) [(١)][(٢)] ثم وقف عن الزيادة أياما وأخذ فى النقص فماج [(٣)] الناس وارتفع السعر، ودام التوقف سبعة عشر يوما ونقص [(٤)] فيها سبعة عشر أصبعا، ثم من الله تعالى بالزيادة وفرج [(٥)]. وعملت فى ذلك المقامة البحرية وهى هذه:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ 1. لما كان سنة سبع وتسعين وثمانمائة أوفى النيل فى منتصف مسرى، وسارت به فى البلاد رسائل البشرى، وأرسلت منه نعم الله على العباد تترى، ورأوا فيه من آيات ربه الكبرى، وحمدوه وإن كانوا عاجزين عن القيام بحقه شكرا. ومازال بحره البسيط المديد، يروى عن ثابت ويزيد، إلى أن زاد من الذراع الثامن عشر سبعة عشر أصبعا، وذلك إلى الثانى والعشرين من مسرى الموافق ليوم الأربعا، والناس من شأنه فى أمان، ومن رخاء السعر فى اطمئنان، قد انحلت عرى الأسعار، وتناشدت فى ذلك الأدباء للأشعار، وذهب النار والشنار2، وصار القمح كل ثلاثة أرادب بدينار، فوقف مد النيل عن الامتداد، وبدأ فيه النقص بعد الازدياد، فانتظر الناس أوبته، وترقبوا منه أن يوفى من الزيادة نوبته، فاستمر على الوقوف، وانكشف لنقصه السواحل والجروف، وانكسف بدره الطالع بما رقم موجه على الأرض من الجروف، وتمثل أرباب الأراضى والمزارع، وأصحاب المراعى والمراتع والمرابع.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٢) ما بين المعقوفتين ليس فى ب.
(٣) فى ب، جـ: فهاج.
(٤) فى الأصل: ووقف.
(٥) ليست فى ب، جـ.

---

1 سورة الشورى، الآية ٢٨.
2 الشنار: الأمر المشهور بالقبح.

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

لا تفتح ترعة لجرى الماء منها إلا وقف، ولا يجسر بجسر بسقى الأكف وما وكف بكف، وسكت المنادى بزيادته ألفا، ونطق خلفا، وصارت الروضة النضرة بعد تلك الخضرة موردة الحلفا، وصب الياس، على أهل المقياس، وصارت دار النحاس أنحس دار، وجرت الأقدار على أهل مصر بالأكدار، وقيل: يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى، ويا زيادة النيل من حيث جئت فارجعى، وغيض الماء، وانقشعت السماء، وقضى الأمر، واستوت القلوب على أحر من الجمر، فحينئذ ماج الناس موجا، وارتقى سعر القمح وغيره من الحبوب أوجا، (وازدحمت حلقة البطالين بأقوام، وطارت نفوسهم جزعا وأصبحوا) [1] فى أمرهم حيارى، وانهمك على شراء القمح المسلمون واليهود والنصارى، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى، كأنما قامت عليهم القيامة، وسقطت عليهم الغمامة، وكل من ورد البحر وصدر يقول يا الله السلامة، وعاد بعض الناس على بعض بالملامة [2]، وعض التاجر على شراء القوت [3] على يديه من الندامة، وأنشد لسان الحال فى المقامة:

وربما فات قوما جل أمرهم من التأنى وكان الحزم لو عجلوا

وتذكر الناس ما يحكى عن الإمامين، وذلك أن مالكا أوصى الشافعى إذا سكن مصر بادخار قوت عامين، ونسوا ما تقدم فى هذا العام من هول الطاعون، وذهلوا عما رأوه [4] لهم الواعون، وذلك لما عندهم من حرارة الغلاء المتقدم من أمم1، وما قاسوه فيه من الشدائد وما بالعهد من قدم، فخشوا عود مثل ذلك، وهابوا حلول

(١) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: وأصبحت الناس.
(٢) فى الأصل: بالندامة.
(٣) فى ب، جـ: القمح.
(٤) كذا بالأصل. وفى ب، جـ: واوه. ولعل الأقرب إلى السياق رواه.

1 الأمم: القرب.

تلك المهالك، وكاد أن يجف الخليج، وصار الناس فى أمر مريج، وقالوا قد شرقت البلاد، وغربت العباد، وشرقت الصدور حين شرقت، وأظلمت الأبصار والبصائر وما أشرقت، وتوهج فى قلوب الناس الحريق، وكبروا ولا ينكر التكبير أيام التشريق، وألقى فى نفوسهم الرهب والرعب، وأشربوا فى قلوبهم من الحب الحب، وخلا البرمن البر، وصار أعز فى الوجود من الدر، وزنه الوزان، وخزنه الخزان، وتوقدت الخزان، وقالوا هذه أيام التشريق لكن بغير عيد، وهذا السير هو الطالع لكنه غير سعيد، وجاعت الأنفس بعد أن كانت شبعى، وأصبح كل فى شراء القوت كأنه حية تسعى، وبذلوا فيه الذهب والمرجان، وتدكدك عليه من الزحمة أمم كأنهم جان، وباع من لم يجد نقده، لشرائه أعز ما عنده.

وقال المقرىء: ما هذا التعسير بعد التيسير، وما لنا عدنا نروى عن قل بن قل1 بعد ما كنا نروى عن ابن كثير، ما هذا إلا أمر مهم، وخطب ملم، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

وقال المحدث: هذا خبر معضل 2، عوقب به من ضل، أجزعتم مما سيق إليكم، إنما هى أعمالكم ترد عليكم.

وقال الفقيه: قد شرقت كل نجوة، وضاقت كل فجوة، وهذا زمان تأسيس مد قمح لا قاعدة مد عجوة.

وقال الأصولى: قد ضاق النطاق، وجاء تكليف ما لا يطاق.

وقال الجدلى: هذا المبيع فى الصورة متصابره، وهى فى المعنى مصادره[1].

---

(١) فى الأصل: متصادره. والمصادرة عند علماء البحث والمناظرة: أن تجعل نتيجة دليلك واحدة من مقدمتيه مع تغيير فى اللفظ توهم به التغاير بينهما فى المعنى. كأن تقول: « هذا أسد، وكل أسد فهو ليث، فهذا ليث ».

---

1 قل بن قل: تطلق على من لا يعرف هو ولا أبوه.

2 الحديث أو الخبر المعضل ـ فى مصطلح الحديث ـ: ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالى.

وقال الصوفى: لو اتقيتم الله لانزاح عنكم الضير، ولو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير.

وقال الفرضى: قد تكدرت المهاياة 1، وتنكرت المعاياة 2، ووقع القول، ونقص العول3، وكثر الطول، وقل النول، وعظم الهول، فلا حول.

وأصبح النحوى يلتقط الحب كأنه ابن عصفور، ويقول: السعر ممدود والمال مقصور، وأنا وكتبى للبيع جار ومجرور، لقد لقينا أمرا إمرا 4، وضرب زيد عمرا.

وقال التصريفى: قد ساءت الأحوال وجلت، ونقصت الأفعال واعتلت، وزاد الغم، وفك المدغم، ووقعنا فى تعسير، وصار جمعنا جمع تكسير.

وقال اللغوى: رب عجلة تهب ريثا 5، ورب غيث لم يكن غيثا، ولا يدرى من [1] بسط له حال من عليه قدر 6، ويحسب الممطور أن كلا قد مطر.

وقال المعنوى: ترى هل نرى للأرض من حقل، ويقول المؤمن: أنبت الربيع البقل، ويمتد من خيام الملق 7 الإطناب، ويوفى الكيل من الزرع بالمساواة والإطناب [2].

---

(١) فى الأصل: فى.

(٢) فى الأصل: بالإطناب.

---

1 المهاياة: قسمة المنافع على التعاقب والتناوب.

2 المعاياة: إلقاء كلام أو مسألة لا يهتدى لوجهها على الغير لقصد إظهار عجزه أو بيان فضله.

3 العول ـ فى المواريث ـ: هو إذا ضاق المال عن سهام أهل الفروض فى الميراث تعال المسألة، أى ترفع سهامها ليدخل النقص على كل واحد بقدر فرضه، لأن كل واحد يأخذ فرضه بتمامه إذا انفرد فإذا ضاق المال وجب أن يقتسموا على قدر الحقوق.

4 إمرا: عجيبا منكرا.

5 ريثا: بطئا.

6 قدر: ضيق.

7 الملق: الأرض المستوية.

وقال البيانى: ترى هل يظفر الجسور بالإحراز، ويكون للماء إلى حقيقة المزارع مجاز.

وقال البديعى: هذه براعة استهلال، تؤذن بالإقلال، وتشعر بوضع الأغلال، على مخازن الغلال.

وقال العروضى: هذه المفاصلة الكبرى، والدائرة التى دارت على الأيام تترى وقال الشاعر العربى:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وقال الشاعر المولد:

نيروز مصر بلا اكتفاء يعد صفعا بغير ماء

وقال الكاتب: قد رقت [1] الحواشى، وضعفت المواشى، والأمر متحقق متلاشى، وما تنفع الطوامير 1، إن لم يكن معها مطامير 2.

وقال الطبيب: هذه أيام بحران 3، يخشى منها الهلاك إن لم يلتق البحران، وإن لم تنضج مادة الزيادة لم يحصل الشفا، وما لم يبلغ الماء القانون المعتاد فالناس على شفا.

وقال الموسيقى: قد خف الجواز، وحجز بين الماء والصعيد حجاز.

وقال المنطقى: هذه قضايا مختلطات، ورزايا غير منضبطات، ما هذه إلا بلية، قد أصبح البر من البر سالبة كلية 4.

---

(١) فى الأصل، جـ: زفت.

---

1 الطوامير: جمع طامور، وهى الصحيفة.

2 مطامير: جمع مطمورة وهى المكان المهيأ لحفظ الشىء.

3 بحران: نسبة إلى باحور أو باحوراء، والمراد به شدة الحر. والأطباء يسمون التغير الذى يحدث للعليل دفعة فى الأمراض الحادة: بحرانا.

4 السالبة الكلية ـ فى المنطق ـ: هى القضية التى سلب فيها المحمول عن جميع أفراد الموضوع. فيكون معنى الشاهد الذى نحن بصدده: لا بر فى البر. أى لا يوجد أى نوع من البر فى أى مكان من البر.

وقال الميقاتى: قد جفت المقنطرات (وانشقت[1] المقطرات) [2] ونفد ما فى الجيب، والمرجو ما فى الغيب، وصرنا كالمثل السائر شهرة (فى العام) [3] ومثلة، وإن دار هذا الغلاء الدائر لم يبق معه فضلة.

وقال المؤذن: يا قوم ما هذا التبريح، ونحن قوم نعيش بالتسبيح.

ودام التوقف سبعة عشر يوما تبعا، ونقص فيها سبعة عشر أصبعا، فبينما الناس فى اليأس، مترقبين حلول البأساء والبأس، لم يفجأهم إلا أهلة النعمة وقد أهلت، وسحب الرحمة وقد انهلت، ومن بزيادة البحر البر الرحيم، ونادى[4] المنادى: زاد النيل المبارك ثلاثة أصابع من عند الكريم، فانشرحت الصدور، وأيقنت بالخيور[5] والحبور، وتبدلت الشرور بالسرور، وتباشر الخلق بالرخاء، وسمحت الأنفس بالسخاء، وفاح عرف الزيادة بالأرج، وقال لسان الحال (لأمين المقياس) [6]: حدث عن البحر ولا حرج.

وقال المقرىء [7]: قد بلغت الأمنية من النيل وهو حرز الأمانى1، وهنينا بتوجهه للزيادة وذلك وجه التهانى، وصرنا نروى حديث البحر والبلاد والمزارع، عن ابن كثير وابن عامر ونافع، وظهر مصداق ما نتلوه ذكرا، ﴿ **فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِيُسْرًا، إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِيُسْرًا** ﴾2 .

---

(١) فى الأصل: واشتقق.
(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٣) ما بين القوسين ليس فى جـ.
(٤) فى جـ. وزاد.
(٥) فى ب، جـ: الخير.
(٦) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.
(٧) فى الأصل: المقريزى. ولعله سبق قلم من الناسخ.

1 المراد بقوله حرز الأمانى الإشارة إلى كتاب: « حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات السبع للسبع المثانى ». وهى القصيدة المشهورة بالشاطبية للشيخ أبى القاسم بن فيره الشاطبى الضرير المتوفى بالقاهرة سنة ٥٩٠هـ.
2 سورة الشرح: الآيتان ٥، ٦.

وقال المحدث: اشكروا الله على إبلائكم، وإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم 1، قد زال الرين، وصح ما روى « **لن يغلب عسر يسرين** » 2، فقيدوا هذه النعمة بسلسلة الطاعة، وصلوا لمن بتقوى الله تأمنوا انقطاعه.

وقال الفقيه: قد جاوز الماء القلتين، وتلاطمت أمواج الحرتين [1]، وتيمم الماء الصعيد الطيب، وصاب على المشرق والمغرب منه صيب.

وقال الأصولى: هذا العام المراد به الخصوص، وهذا الظاهر القاضى على النصوص.

وقال الجدلى: الآن نقح المناط 3، وأغنى هذا الوارد عن الاستنباط.

وقال الصوفى: من انقطع إلى الله آواه، ومن توكل عليه كان حسبه وكفاه.

وقال الفرضى: قد صلح الرد4، وصح العد، وقاسم الجد، وصارت الأنصباء مستغرقة، وقسم الماء على الفروض طبقة طبقة.

وضم النحوى إليه كتبه، وقال الآن استوى الماء والخشبة، قد زال الغم والهم، وصار البر الكر[2] قفيز بدرهم، وسئل أشعيرا تريد أم برا، فقال: كلاهما وتمرا.

وقال التصريفى: قد زال الرك [3]، وطاح [4] الشك، وقوى الفك، وزاد المد، وخف الشد، وحسن الرد.

---

(١) فى ب، جـ: البحيرتين.

(٢) ليست فى ب. وفى جـ: كم. والكر: مكيال لأهل العراق ومقداره ستون قفيزا أو أربعون إردبا.

(٣) فى الأصل: الترك. ولعل الرك هنا بمعنى الضعف.

(٤) فى ب، جـ: وصح.

---

1 الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٣/ ١٠٦١) عن سعد بن أبى وقاص.

2 أخرجه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٤٦) موقوفا على عمر بن الخطاب. والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٢٠٦) موقوفا على عبد الله بن مسعود. وقال البيهقى: وقد روى من وجه آخر مرفوعا، وهو ضعيف.

3 تنقيح المناط ـ عند علماء البحث والمناظرة وأصول الفقه –: هو إلغاء بعض الأوصاف التى أضاف الشارع الحكم إليها لعدم صلاحيتها للاعتبار فى العلة.

4 الرد – فى اصطلاح علم المواريث –: هو صرف ما فضل عن فروض ذوى الفروض ولا مستحق له من العصبات إليهم بقدر حقوقهم. وهو نقيض العول السابق ذكره.

وقال اللغوى: هذا المقبل المبقل[1]، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، قد بان البيان، والتقى الثريان[2]، ورويت الربى[3]، وبلغ الماء الزبى 1، وكمن الغيث على العرفجة2، وأيقنا بكل ألوان بهجة، ودعه يعبث ولا يبل، فالغيث يصلح ما خبل.

وقال المعنوى: ما أحسن هذا الإسناد، المقصور علينا قصر إفراد 3.

وقال البيانى: ما أحسن هذا الإمداد، المؤذن بكثرة الرماد، فليثر به المثنى، وفى التلويح ما يغنى.

وقال البديعى: قد زال الإبهام والإيهام 4، وحسن التوشيح 5 والاستخدام6، فالحمد له على حسن الختام 7.

---

(١) فى الأصل، ب: المقبل.

(٢) فى ب: الريان. والتقى الثريان: وذلك أن يجىء المطر فيرسخ فى الأرض حتى يلتقى هو وندى الأرض.

(٣) فى الأصل: المربى.

---

1 الزبى: جمع زبية، وهى الرابية لا يعلوها الماء.

2 العرفجة: نبات سهلى سريع الاتقاد طيب الرائحة. والجملة « كمن الغيث على العرفجة ». أى: أصابها المطر وهى يابسة فاخضرت. وهى مثل يقال لمن أحسنت إليه، فقال لك: أتمن على ؟

3 قصر إفراد ـ عند البلاغيين ـ: هو القصر الذى يخاطب به من يعتقد اشتراك شيئين أو أشياء فى أمر واحد، والغرض منه قطع اعتقاد تلك الشركة التى اعتمدها المخاطب. مثل: ما شجاع إلا على. ردا على من اعتقد اشتراك زيد معه فى صفة الشجاعة.

4 الإيهام: ويسمى التوجيه، وهو أن يؤتى بكلام يحتمل على السواء معنيين متباينين كهجاء ومديح.

5 التوشيح ـ فى علم البديع -: هو أن يكون فى أول الكلام ما يستلزم القافية. كقول البحترى:

فليس الذى حللته بمحلل وليس الذى حرمته بحرام

6 الاستخدام: هو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد به أحدهما، ثم يراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه ثم بالآخر معناه الآخر.

والمشهور الأول ومنه قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض رعيناه وإن كانوا غضابا

أراد بالسماء الغيث، وبالضمير الراجع إليه من " رعيناه "النبت. و"السماء" يطلق عليها.

7 حسن الختام: أن يكون فى ختام الكلام روعة تهتز لها النفس ويطرب لها السمع، كقول الشاعر:

عليك سلام نشره كلما بدا به يتغالى الطيب والمسك يختم

وقال العروضى: قد زحف المديد الوافر، وجرت السفن حيث يقرع الحافر، وقصر الطويل، وسكن العويل والزويل1، وحصل اللطف المتدارك، فجل [1] الله تبارك.

(وقال الشاعر العربى:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا) [2]

وقال الشاعر المولد:

زادت أصابع نيلنا (وطمت[3] فأكمدت الأعادى) [4]

وأتت بكل مسرة ما ذى أصابع ذى أيادى

وقال الكاتب: قد شربت البقاع، وسيرت الرقاع، وأيقن بالرى كل قاع، ونسخ غلاء القمح والشعير، وانحط السعر نحو الثلث والثلث كثير.

وقال الطبيب: قد صلح النبض، وحصل البسط بعد القبض.

وقال المنطقى: قد وضح الجد، وصلح الرسم والحد.

وقال الموسيقى[5]: قد صرنا فى عراق، وصفا الوقت وراق.

وقال المؤذن: سبحان فالق الإصباح، وما حق ذاك الديجور2 بهذا الصباح.

وقال الميقاتى: قد خلا ربع المصيطرات، وامتلأ ربع المقنطرات.

---

(١) فى الأصل: فجعل.

(١) ما بين القوسين ليس فى ب، جـ.

(٢) مكان هذه اللفظة بياض بالأصل.

(٣) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: وطف وطافت فى البلاد.

(٤) فى الأصل: الوسيفى.

---

1 الزويل: الحركة والقلق.

2 الديجور: الظلام.

ونادى فى الناس حى على الفلاح، وأعلن بالصلاة على النبى والسلام، واقتفى نداه كل خطيب وإمام، وابتهل سائر الخلق بالدعا، ودعوا ربهم تضرعا، وقالوا اللهم قنا العيث 1، واسقنا الغيث، وأنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، وأنزل لنا من بركات السماء وأخرج لنا من بركات الأرض، وابسط لنا من خزائن رحمتك ما يزول به القبض، وتلا لسان الحال على المؤمنين: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ 2.

قال الحافظ أبو الفضل بن حجر فى إنباء الغمر: لطيفة:

اشتهر بين الناس أن الذى يريد أن يعرف مقدار نيل السنة ينظر فى أول يوم من مسرى إلى منتهى الزيادة فيزيد عليها ثمانية أذرع، حتى سمعت الإمام عز الدين بن جماعة يحكى ذلك عن أبيه عن جده وأن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة كان يعتمد ذلك ويدعى أنه لا يخطىء. قال فاتفق أنه اخطأ فى سنة خمس عشرة وثمانمائة، فإنه كان أول مسرى قد بلغ ستة عشر ذراعا فلو زيد ثمانية لبلغ أربعة وعشرين ولم يقع ذلك.

وفى سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة فإنه كان أول يوم من مسرى بلغ ثمانية أذرع وثلاثة عشر أصبعا، وقد انتهى فى هذه السنة إلى ثمانية عشر ذراعا وثلاثة أصابع.

وقال المقريزى فى السلوك: من أقوالهم: إذا لم يوف النيل فى مسرى فانتظره السنة الأخرى.

---

1 العيث: الفساد.

2 سورة الأعراف، الآيتان ٥٥، ٥٦.